

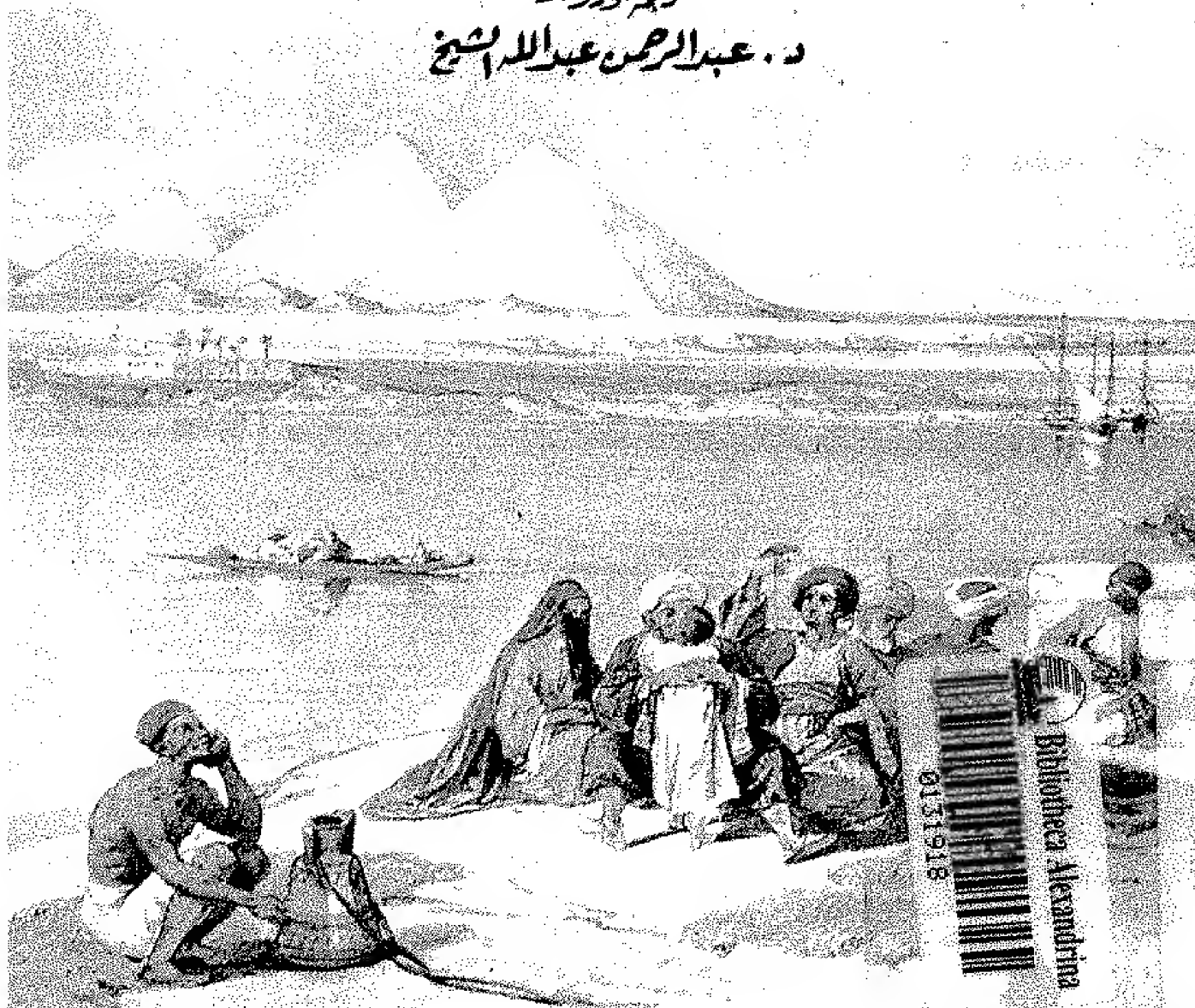
الكتاب
الشباب

١٩٧

رحلة .. الأمير دؤلف

إلى الشرق

ترجمه ودراسة
د. عبد الرحمن عبد الله شيخ



الجزء الأول

الهيئة المصرية العامة للكتاب

Bibliotheca Alexandrina
0131918

رحلة..
الأمير ردولف
إلى الشرق
(مصر والقدس)

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

علياء أبو شادى

رحلة
الأمير ردولف
إلى الشرق
(مصر والقدس)

الجزء الأول

صاحب السمو الإمبراطوري والملك
الأمير ردولف

ترجمة ودراسة
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

TRAVELS IN THE EAST

الفهرس

| الموضوع | الصفحة |
|---------------------------------|--------|
| مقدمة الترجمة العربية | ٧ |
| الفصل الأول | ٣١ |
| الفصل الثانى | ٥٣ |
| الفصل الثالث | ١٠٧ |
| تعليقات المترجم عن الفصل الأول | ١٤١ |
| تعليقات المترجم عن الفصل الثانى | ١٤٧ |
| تعليقات المترجم عن الفصل الثالث | ١٥٦ |

مقدمة الترجمة العربية

قام الأمير ريدولف (صاحب السمو الامبراطورى والملكى) وهو أحد الأمراء المهمين من آل هابسبرج، برحلته فى عهد الخديو إسماعيل، وقطع مصر من أناها إلى أقصاها، فزار الاسكندرية وسواحل مصر الشمالية، والقاهرة والفيوم (وهو ما تقدمه فى هذا الجزء) وتوغل فى صعيد مصر حتى أسوان، فوصف رحلته النيلية والظواهر الجغرافية، وأبدى انبهارا بأثار «مصر المقدسة» على حد تعبيره، وعاد من أسوان ليملك فى القاهرة فترة أخرى ثم يتوجه إلى بورسعيد، ويقطع قناة السويس، ويتجول فى البحر الأحمر (وهو ما تقدمه للقارئ فى الجزء الثانى)، ثم يتوجه إلى الشام ويزور بعض موانئها ويتجه للقدس الشريف، ثم يعود إلى فينا (وهو ما تقدمه فى الجزء الثالث).

والرحلة ممتعة وغاصة بالمعانى والتلميحات ذات الدلالة، وبالنسبة لمن يقرءون الرحلات كمصدر للتاريخ السياسى والاجتماعى، لا بد أن نذكر لهم توطئة أو دراسة تفسر كثيرا من المصطلحات والأمور الواردة بها.



قد يكون أول ما يلفت النظر هو لقب «الأمير» صاحب السمو الامبراطورى والملكى، فقد تمت الرحلة والنمسا والمجر تشكلا كيانا سياسيا واحدا عرف بالمملكة الثنائية أو مملكة النمسا والمجر، وكان لكل منهما دستور مستقل وحكم ذاتى، أما السياسة الخارجية وأمور الدفاع فمن اختصاص امبراطور النمسا والمجر، وهو الرمز الذى يجمع المملكتين وتوابعهما فى كيان واحد، فالأمير ريدولف إذن صاحب سمو امبراطورى لأنه من آل هابسبرج، وقريب للامبراطور فرانسوا جوزيف امبراطور النمسا والمجر وتوابعهما فى ذلك الوقت (استطلعنا الحصول على صورة معبر قلبه الحقناها بالفصل الثانى)، والأمير ريدولف فى الرقعة نفسه من أمراء النمسا أو مملكة النمسا، فهو إذن صاحب «السمو الملكى».



لقد رسم السياسة المجتمعون في مؤتمر فيينا الشهير (١٨١٤ - ١٨١٥) خريطة أوروبية جديدة ، بهدف اتقاء أخطار تأتي من فرنسا ، كذلك الأخطار التي صدرت عنها بسبب ثورتها الشهيرة وما تلاها من فتاحات ، فحوصرت فرنسا بمجموعة من الدول الحاجزة ، وعمل السياسة المجتمعون على الشد من أزر النمسا حتى يسود الاتجاه المحافظ في أوروبا ، باعتبار النمسا من أهم الكيانات الأوروبية المصافطة التي تحكمها أسرة عريقة تهدد ما آية أفكار ثورية . ومن هنا فقد جعل مؤتمر فيينا من نمسيتها شمال إيطاليا ووسطها ، وتريست والساحل الدلاسي (دلماسيا) ، ونظرت النمسا بعد مؤتمر فيينا كرئيسة لانحساد جرمانى . وقد أجبرت الظروف هذه الامبراطورية العتيدة على منح المجر استقلالها الذاتى مع تبعيتها للامبراطورية ، وقد طغت على الامبراطورية التقاليد والشكليات ، وزادت الاستثناءات . وكان ذبائزها معقرون من الضرائب وكان الفلاحون يساقون كل أنواع المعاناة ، وظل هذا الوضع على حاله فى عهد الامبراطور فرديناند (١٨٣٥ - ١٨٤٨) بل وتفاقم سوءا فى عهد الامبراطور فرانسوا جوزيف (١٨٤٨ - ١٩١٧) الذى تمت الرحلة فى عهده . والامير ريدولف كاتب رحلتنا هذه هو ابن بيته وابن النمسا وابن الأسرة الحاكمة ، فهسل ترك كل ذلك اثره فى رحلته ؟ اننا نلاحظ أن حال الفلاح المصرى لم تستثره ، ولم يتعرض لذلك الا لما كان وصفه للأحوال البشرية مجردا خاليا من العاطفة ، وكأنه يرى أن هذا هو الوضع الطبيعى للفلاح ، وكان اهتمامه عندما كتب رحلته هذه منصبا - غالبا - على وصف الظواهر الجغرافية والحياة الحيوانية والنباتية ، ووصف الآثار ، والتعرض لتاريخ المدن ، والتغذى بجمال الطبيعة ، والاشنبارات لأصول السكان (اشنبارات أنثروبولوجية) مع اشارات ذات دلالات سياسية وفسية .

ومع أن النمسا - فيما يقول المؤرخ فشر - كان بهسا فى ذلك الوقت اقصى أنواع الشرطة فى أوروبا « واقطعها وحشية وأشدها قمعا » ، الا أن الامير حسدنا فى رحلته هذه عن مدى خوف المصريين من رجال السلطة المصرية ، بل من كل لابسى الملابس الرسمية . مجرد ملابس رسمية تخيفهم وتجعلهم « يختبئون بين أعواد القصب » على حد قوله الذى يروى فيه واقعة محددة ، لا مجرد تشبيه يلاهى .

ومتابعة تاريخ امبراطورية النمسا ، أو المملكة الثنائية بعد ذلك (مملكة النمسا والمجر) توضح هذا الحشد من الأجناس المختلفة التى استقبلت الامير ريدولف ورفاقه عند قدومه لمصر : ايطاليون ، ويونانيون ، ودلماسيون (أهل دلماسيا والساحل الدلاسى - الساحل الممتد من شمال

الحدود الألبانية حتى تريسنت بما فى ذلك ساحل استيريا) والمبان • الخ •
فقد كاذت الامبراطوريه النمساوية تمج باجناس مختلفه ، عندما
استقرت بعض جالياتها فى مصر حصلت على الحماية النمساوية ، يل
وسعى بعض افراد هذه الجنسيات ممن لا يتبعون النمسا سياسيا للحصول
على الحماية النمساوية ، وقد حقق بعض هؤلاء قراء بالفا فى مصر ، وقدس
لنا ردولف عن هذا التريستى الذى تخصص فى انتاج كل التحف الشرقية
فى خا الخليل وسوق الحمزاوى *

ولم ينس ردولف أن يذكرنا برأيه فى الأزهر الشريف والتعليم الدينى
وهو يعتبر الأزهر الشريف « مفرخة » للتعصب الاسلامى ، على حد قوله ،
وبث همومه لقارئيه ذاكرا ان هذا المعهد - وقد اسماه جامعة القاهرة -
يصدر التعصب للعالم اجمع ، وهو فى هذا يذكرنا برأى بيرتون (نشرت
رحلته الهيئة العامة للكتاب - الألف كتاب الثانى) - الذى يفضل - من
وجهة نظر أوربية - اسلام الدراويش أو بمعنى آخر الاسلام اللاعقائى
- اسلام الغيبيات والجان وما الى ذلك *

النصوص الأثرية المترجمة ، ووصف الآثار :

ومما يزيد من أهمية هذه الرحلة أنها تضم عددا غير قليل من
النصوص الأثرية المترجمة للعربية ، يزيد من قيمتها أن مترجمها هو العالم
الأثرى الشهير برجش Brugsch . *

وكان برجش باشا هو ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم (اللغة
الهيروغليفية) التى أسست سنة ١٨٦٩ ، لكن هذه المدرسة الغيت سنة
١٨٧٦ وقد تخرج فى هذه المدرسة عدد من الأثاريين منهم أحمد كمال
باشا (١) • وقد نشر برجش فى غير هذه الرحلة كثيرا من الترجمات
لنصوص هيروغليفية قديمة (٢) •

وبالإضافة للنصوص الأثرية ، فقد قدم لنا برجش باشا وصفا لبعض
المواقع الأثرية ، وفيما يلى قائمة بكليهما (النصوص المترجمة ،
والوصف التقريرى للمواقع) لأهميتها للمهتمين بالدراسات التاريخية
والأثرية :

-
- (١) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ • دار المعارف ، ١٩٨٢ ، ص ٢٠٥ •
(٢) وردت اشارات لذلك فى : نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالمعهد القديم •
جيمس ريتشارد • ترجمة عبد الحميد زايد ، نشر هيئة الآثار المصرية •

- ١ - تقرير عن هليوبولس - الفصل الثايف
- ٢ - الصوابة المذفوفة - الفصل الرابع
- ٣ - مذفوره - الفصل الرابع
- ٤ - آثار الكرك - الفصل الرابع
- ٥ - طيبة - الفصل الرابع
- ٦ - ترجمة لوحة جرانيفية فى أرمنت (ترجع لحوالى سنة ١٩٦٠ ق م) الفصل الرابع
- ٧ - كوم امبو - الفصل الرابع
- ٨ - عن آثار اسوان - الفصل الرابع
- ٩ - فيلة - الفصل الرابع
- ١٠ - تقرير ائرى عن مقابر ببيان الملوك - الفصل الخامس
- ١١ - ترجمة نص هيروغليفى فى مقبرة سيقى الاول (١٣٥٠ ق م) الفصل الخامس
- ١٢ - آلهة مصر الفرعونية (شجرة نسب) - الفصل الخامس
- ١٣ - تاريخ منف - الفصل الخامس
- ١٤ - الأهرامات واىو الهول - تقرير ائرى - الفصل الخامس
- ١٥ - عن التاريخ القديم لبرزخ السويس - الفصل السادس
- ١٦ - برزخ السويس جسر الأمم - الفصل السادس

المصريون فى رحلة ردولف :

حظيت الملاحظات الأنثروبولوجية بمكانة مهمة فى هذه الرحلة . لقد رأى الأمير أن أهل مصر فى معظمهم من عرق عربى ، بمعنى أنه كغريب وافد طبق ما قرأه ودرسه عن صفات العرب الفيزيائية ، فوجدتها تنطبق على نحو أو آخر - على معظم المصريين ، حتى الفلاحين الذين رأى فيهم استمرارا للمصريين القدماء رأى فى ملامحهم سمات سامية Semitic ووجدهم عنصرًا تسرى فى عروقه الدماء العربية على نحو أو آخر ، أما العنصر الثانى الذى ترك بصماته على دماء المصريين فيتمثل فى الأتراك وأهل شرق أوربا والقوقازيين وأهل الشرق الأدنى . لقد لاحظ ذلك بمجرد وصوله لالاسكندرية : « ... واحتشدت على أمقداد الماء قوارب مائى بالعرب من كل الطبقات : فمئهم الغنى ومنهم الفقير ولكنهم كانوا يلبسون ملابس فاخرة لها طابع خاص ... ورائنا كثيرا من أهل المدن

من الشرق الأدنى واليونانيين والإيطاليين واليهود ، وكان منهم من يضع فوق رأسه طربوشا بينما كان آخرون منهم بغير طرابيقتن * ولما دخل الإسكندرية بالفعل لفت نظره العرب من الصمانيين والسقائين والبانعين والفلاحين ذوي الجلابيب الزرق داكنى البشرة ٠٠ وجميعهم داكنو البشرة ، فالعربى الحقيقى داكن اللون وله ملامح جميلة ونبيلة ، وشكله رقيق لكنه مفعم رجولة ، والعربى - وأن كان أرقى من اليهودى بكل المقاييس - إلا أنه يشبهه بشكل واضح لا تخطئه عين ٠٠ ، لكنه يعود فيقول : والفلاحون رغم أن الدماء العربية تسرى فيهم إلا أنهم أقرب شيها بالمصريين القدماء » .

وكل هذا لا يمنع أن المصريين قد تمازجوا تماما وأصبحوا عنصرا واحدا ، فعبد القادر باشا الذى أشرف على رحلة الأمير النمساوى كان « نصفه تركى ونصفه عربى » ولم ير الأمير أى فرق عرقى - فيما يقول هو - بين المسيحيين فى سوق الحمزاوى ، وهى سوق التجار المسيحيين زمن الرحلة ، واليهود فى حي الجواهرجية والمسلمين فى حي النحاسين . ويقول : « وفى السوق يؤكد العرب أنهم جنس سامى حقا كما هو شأنهم اليهود . وأنت لا تستطيع التمييز بينهم إلا بمشقة » .

ويشكل البربر - فيما يرى ردولف - جزءا من سكان مصر خاصة فى الصحراء الغربية ، وقد رأهم يعملون جنبا الى جنب مع النوبيين فى حراسة مراكز الصرافة وبيوت المال . ويقول عن المصريين فى الصحراء الغربية : « انهم بربر أصلاء ٠٠٠ الموانهم داكنة ومظهرهم الخارجى يوحى بمصلاية أشد مما عليه سكان النيل الأدنى (الدلتا) وغالبهم طوال القامة ويتسمون بالانحسار ، وإن كانت ملامحهم أقل نبلا وجمالا من ملامح القبائل البدوية فى الشمال ، فالدماء الزنجية واضحة فيهم وبعضهم سود تماما ، له شعر مفلقل قد يحسبهم المرء من البربر ، والحقيقة أنه قد تم استرقاقهم - عندما كانوا أطفالا - من موطنهم فى داخل أفريقيا ثم حصلوا على حريتهم من القبيلة التى نشأوا بها ، ومع هذا فقد ظلوا محتفظين بلغة البدو وزيتهم وعاداتهم ونسوا أصولهم الأفريقية تماما » ، وعن أهل الفيوم - نلاحظ أن ردولف يثبت تأثرهم بالمعرق البربرى .

كل هذا لا يتفى بأية حال من الأحوال الامتزاج العرقى الكامل للشعب المصرى ، لكن أهمية ما نذكره الآن أن التراث الثقافى والعادات والتقاليد ، وما الى ذلك - كل ذلك يورث تماما كما قورث الصفات الفيزيائية ، ومن هنا لابد من دراسة هذا التراث الأفريقى والبربرى والعربى والأوربى الشرقى لفهم العقلية المصرية ، بالإضافة بطبيعة الحال لدراسة التراث

الفكرى الفرعونى والقبلى الأساسى . ولم ير ردولف فى أقباط مصر أى اختلاف عرقى يفرق بينهم وبين المصريين الآخرين فهم من (الخلطة) نفسها . وتلك ترجمة دقيقة لعبارة الدالة على ذلك : « ومن الناحية العرقية ، فإن قبط مصر ينتمون للعرق نفسه الذى ينتمى إليه المصريون الآخرون » ، ووصف بعض رجال الدين المسيحى الأورثوذكسى الذين قابلهم فى مصر القديمة بأن « بشرتهم داكنة » . وسحنتهم تشبه - بشكل واضح - سحن اليهود . . . » . والأمير كما سبق القول - يرى بين العرب واليهود شبهة فيزيقية ، ويقول : « وقد رأينا بين الكهنة والقسس وغللمان الخورس الوجوه البنية الداكنة كوجوه الأفارقة المخلص » . ولاحظ الأمير أنه « كلما توغلنا للجَنُوب ، زارت دكانة البشرة » وهذا طبيعى نتيجة لدرجة الأثر الأفريقى فى المصريين ، فمصر أفريقية على أية حال ، ومع هذا فقد لاحظ الأمير عددا كبيرا من الراقصات القوقازيات والبربريات فى صعيد مصر .

ومعظم الدراويش الذين رأهم الأمير كانوا - فيما يقول - يعودون فى أصولهم الى شرق أوروبا وآسيا الصغرى .

ومع هذا فقد أشار الأمير الى أعراق غريبة كالعبادة ، الذين رأى فيهم (العبادة) جنسا غير سامى ، وغير زنجى كذلك ، وزعم أنهم من الكوش (الجنس الكوشى Kushites) ، ويسكنون التسلال الى الشرق من النيل أى بين النهر والبحر الأحمر واستقر بعضهم على ضفاف النيل (الفصل الرابع) .

وعن سكان أسوان (فى الفصل الرابع ص ٦٢) رأى ردولف فيهم تجارا عربا (وصفهم بأنهم ساميون مأكرون) يخدعون ويغشون زبائنهم الذين هم نوبيون وزنوج وسلالة الأثيوبيين القدماء والعبادة وقبائل كوشية صغيرة .

وحول بحيرة المنزلة رأى ردولف - فيما يقول - بقايا الكوشيين (الهكسوس) . قد يكون هذا خطأ على نحو أو آخر ، وقد يكون صحيحا ، لكنه على أية حال رؤية من عيون غريبة ، وقد ترى عين الغربى ما لا تراه عين القريب .

الحياة الحيوانية الطبيعية فى مصر وقت الرحلة :

غطى وصف الحياة الحيوانية شطرا كبيرا من هذه الرحلة ، لسبب بسيط وهو أن الأمير ردولف اتخذ هواية الصيد وسيلة للاستمتاع أثناء رحلته هذه ، أو أنه كان بالفعل مهتما بعلم الحيوان ، ونورد فى السطور

التالية المامة شاملة عن الطيور والحيوانات البرية التي اصطادها وحصل عنها على نماذج ، ومن هذا يتضح مدى ثراء مصر في هذا المجال خاصة زمن الرحلة (النصف الثاني من القرن التاسع عشر) .

لقد حدثنا عن كثرة طيور البلشون أو مالك الحزين وهي ما نعرفه في مصر بطيور (أبو قردان) ، وإذا كان النوع الأبيض هو المعروف من هذه الطيور الآن ، وهو النوع الذي نراه بكثرة فوق الأشجار المحيطة بمدينة الحيوان بالجيزة ، وكما نراه ونحن صغارا يملأ الحقول في الريف خاصة بعد ربيها ، إلا أن الأمير يحدثنا عن الموان أخرى لهذا الطائر فمنه البلشون الأسود والبلشون الأرجواني . وقد وجد الأمير هذا الطائر في حدائق شبرا وفي كل مكان ذهب إليه في مصر سواء في الصعيد أم شرق الدلتا وحول بحيرة المنزلة ، كما وجده في الحقول حول الاسكندرية .

وبالإضافة لهذا فإن الأمير يحدثنا عن حوالي خمسين طيورا منها النسور Vulture وقد رأى منها أنواعا عدة عند المحجر في جبل المقطم ورصدها على ضفتي النهر أثناء رحلته إلى أسوان وجزيرة فيلة ، كما حدثنا عن الحشرات التي كانت شائعة جدا في مصر ، ولبسور النسور (بتشديد الشين وضمها وتسكين النون وضم القاف) Snipe وهي - كما ورد في معجم مصطلحات العلوم الزراعية - من فصيلة دجاجات الأرض وتسمى في بلاد الشام شكب (يضم الشين والكاف) ، وقد صادها في حدائق شبرا وأثناء رحلته النيلية للصعيد ، كما رأى الكراكي (جمع كركي) وهي طيور طويلة الساق ، وصادها في الدلتا والصعيد ، وطيور الوروار bee-eater وهذا الطائر يسمى أيضا الخضار (بتشديد الضاد وفتحها) كما يسمى أيضا بالتصغير الخضيرة أو الخضيراء ، واسم الوروار شائع في الشام . وهو طير من الجواثم ملتصقة الأصابع ، وقد صاده منه عددا لا بأس به في حدائق شبرا .

ومن الطيور التي حدثنا عنها أيضا أبو طيط ويسمى هذا الطائر البيرويت pewit وفي العامية المصرية الزقزاق الشامى ، وسبقناه طويلة ويعيش حول المستنقعات وعلى ضفاف الأنهار ، وقد صاد الأمير منه في حدائق شبرا . وطيور الحجل (بفتح الحاء والجيم) Partridge ولما زار الفيوم وجد حول بحيرة فارون الصقور الحوامة eagle buzzard والبجع وطيور الغطاس diver . وحدثنا عن طيور النورس ويسمى الواحد منها أيضا زمج الماء (يضم أوله وتشديد الميم وفتحها) gull ويبحث عنها في معاجم الحيوان تحت اسم larus وهي طيور ريشها طويل ، وهي من رتبة كفيات القدم وتطير أسرابا فوق البحيرات والشواطئ ، ووصفها الأمير بأنها طيور ساذجة يسهل صيدها

كما حدثنا عن نسور النهر river eagle ويقال لها أيضا عقبان البحر وقد وجدهما حول بحيرة قارون • وفي الفيوم أيضا حدثنا عن الببغاء الأبيض وطيور الغراء السوداء (يتشدديد الرأء وفتحها) black coots وقد وجدهما تتردد بكثرة حول البوص (الغاب) القريب من بحيرة قارون ويسمى الواحد من هذه الطيور أيضا عزه (يتشدديد الرأء وفتحها) وهى من طيور المستنقعات وسيقانها طويلة ، ومن أسمائها المعجمية أيضا Fulica ودجاجات الأرض وهى طيور برية طويلة الساق اسمها العامى Scolopax rusticola كما حدثنا أثناء رحلته النيلية فى الصعيد عن طيور أبو مانتة Spoonbills ، واوز النيل والخطاب (يتشدديد الناء وفتحها) الى السنونو Swallow والثلثى Storkes • وكانت رحلته ابخرة المنزلة ثرية فى هذا الصدد ، فحدثنا - بالاضافة لطيور أخرى - عن طيور اللغاق Cormorants وهو طائر مائى من الفصيلة البجعية من كفيات التيم ويسمى أيضا غراب البحر Sea raven ، وطائر مزرة البطمانج moor buzzard • ويمكن البحث عنه فى معاجم الحيوان تحت مصدايح Circus • وحول المنزلة أيضا حدثنا عن طيور التخلق (بكسر التاء

وتسكين الغين وكسر اللام) rail وهو طائر مائى قصير الجناحين طويل الساق ، وطيور الزقزاق Plover وتسمى أيضا قلقساط ويسميه العامة فى مصر أبو الروس ، وصانف طيور السمان كثيرا ، وهى الطيور التى تسمى بالعامة الشامية فرى ، وان كان من الملاحظ ان هذا المسمى الشامى بدأ يشيع فى العامة المصرية • وقد لفت نظره كثيرا - وانا اعجابه أيضا - طائر البشروس (الفلامنجو Flamingo) • كما حدثنا عن طائر زمار الرمل Sand pipers ويسمى أيضا طيطوى (يتشدديد ابياء) وهو طائر طويل الساق والمنقار ، وفى قنا صانف البوم الصياح Screech owl ، ويسمى أيضا البوم الأصم والراحدة منها البومة الصماء ، وبالعامة المصرية (البومة الطرشة) ، وقد التقى بها فى المعابد الجنائزية بالصعيد وثمة نوع من هذا البوم يسمى الهامة • كما حدثنا عن طيور أبو مجرفة Oveset or Scooper وهو طائر ريشه أبيض وأسود وساقاه طويلتان ، ومنقاره مقوس لأعلى ، ومن هنا سمي (أبو مجرفة) لتشابهه بمنقاره مع المجرفة •

وقبل أن يودع الأمير مصر فى طريقه لفلسطين حدثنا عن صدى الكروان •

★ ★ ★

أما عن صيده من الحيوانات البرية ، فقد اندمشت - هو نفسه - لكثرتها حتى فى المناطق المزروعة والأهلة بالسكان ، فقد اصطاد فى حدائق شبرا حيوانات ابن اوى Jackal ، والاسم العلمى لهذا الحيوان هو Canis aureus وهو من الفصيلة الكلبيية ورتبة اللواحم ، ووصف الأمير الذئب المصرى بالموسامة ، وقد اصطاد منه فى حدائق شبرا ، وفى كل مكان - سواء فى الصعيد أو الدلتا - قام فيه برحلة صيد .

وحدثنا عن شمالي الصحراء والسحالى والنموس حول الفيوم ، كما اصطاد الأمير حيوان الوشق (بفتح الواو والشين) Lynx وتكتب أيضا Lynx بدون حرف . وقال ان عيونه خضراء ، وقد التقى به حول بحيرة قارون ، وهو حيوان مفترس من جنس السنور . وكان له تجربة فى صيد الأرانب البرية فى الفيوم ومنطقة السويس ، أما الضباع فقد كان شغوفا شغفا زائدا بصيدها وكأن بينه وبينها تآرا .

الحياة الحيوانية الطبيعية فى فلسطين وقت الرحلة :

بعد أن زار الأمير مدينة القدس تفرغ للنزهة والصيد ، فحدثنا عن طيور الصرد (بضم الصاد وتشديدها) وعن طيور القمرية (بضم القاف وتسكين الميم) Turtle-dove والسमान (الفرى) وعن العقاب النسارى Osprey علم نهر الأردن وطيور الشرقرق roller ويسمى الواحد من هذه الطيور أيضا شقراق (بكسر الشين وتسكين القاف) وهو طائر أصغر من الحمام ، له ألوان زاهية ، ومنه الأحمر الوردى ومنه الأزرق ومنه الأخضر ، وطيور الوروار ، وطيور الدراج (بتشديد الراء وفتحها) Franklin وهى طيور تشبه الحجل ، وطيور التدرج (بفتح التاء وتسكين الدال وضم الراء) Pheasant ومن هذه الطيور ما هو فضى وما هو ذهبي وما هو مطوق ، بمعنى أن لون الريش حول رقبة يختلف عن لون الريش فى سائر جسمه .

أما عن الحيوانات البرية التى صاهاها حول مسيلات نهر الأردن فأهمها على الإطلاق الخنازير البرية التى كانت توجد هناك بأعداد كبيرة . كما حدثنا عن حيوان الشيهم (بتشديد الشين وفتحها) - Porcupine وهو حيوان شائك من القوارض ويسمى أيضا النيص (بتشديد النون وفتحها) وحيوان الأرماديللو Armadillo ويسمى أيضا (الدرع) وهو حيوان ثديي ، لرأسه وجسمه دروع من الصفائح العظمية الصغيرة ، وهو يستطيع أن ينكمش داخل هذه الدروع على هيئة كرة ، ويسمى

بالتفسير أيضا (دويرج) وقام الأمير باصطياد بعض الأيا
التلال بين يافا والقدس * وهي حيوانات مجترة مختلفة الأذو
عن حيوان كسار البندق nutcracker والأرانب الداكنة والشع
على نحو خاص — كالمهد به بحيوانات ابن أوى والضبا
لنا من خلال معاينته لما اصطاده أن ابن أوى هي فاسطين أ
أوى المصرى وأطول منه سيقانا ، وإن كان ذيله أقصر من
المصرى *

★ ★ ★



والنوع الابيض من هذا الطائر يعرف أيضا باسم بلشون القيط



وقد اشار الأمير في رحلته للبلشون الأرجواني ، والبلشون الاسود -



أبو منجل ويسمى أيضا ، المقدس (بتشديد الدال وكسرهما)



أبو منقعة



البشاروس ويسمى ايضا اللحام (بضم النون وتشديدها)
وجده حول بحيرة المنزلة وفي جزرها •



الغاق أو غراب البحر وجده الأمير رنولف بكثرة في جزر بحيرة المنزلة



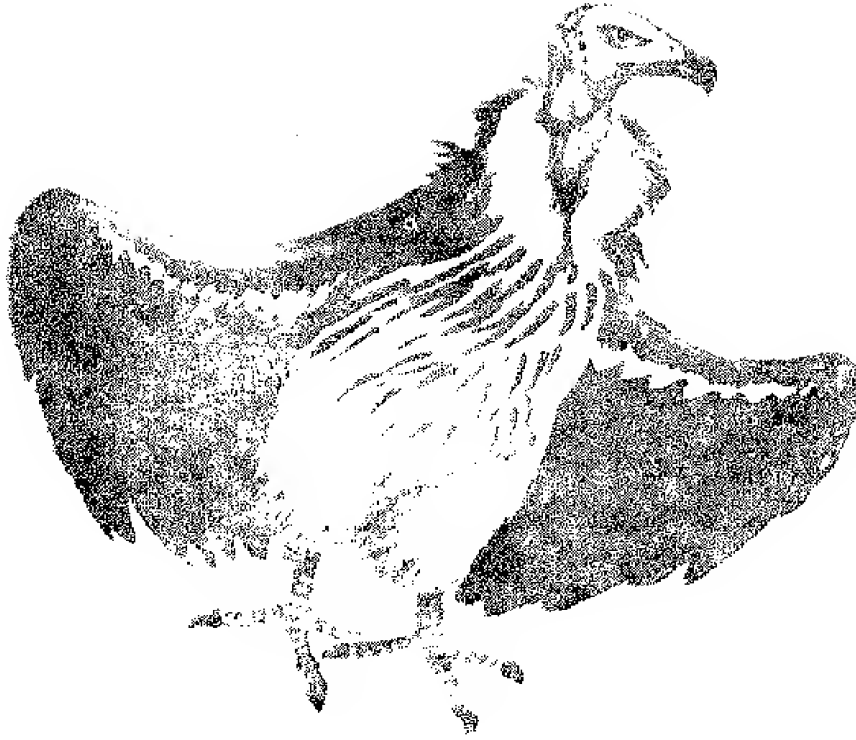
مرزة الوديان أو مرزة البطائح - طائر جارح
Moor buzzard شاهده الأمير في جزر بحيرة المنزلة .



النسر أبو ذئب



الهدأة - وكانت من الطيور الجارحة المنتشرة جدا في مصر لكن أعدادها قلت الآن



الفسر أبو الذن (أبو ودان) وقد أشار إليه ردولف بالنسر الاصليح



الفسر الأسمر ويطلق عليه أحيانا العنقاء

ماذا أضافت الرحلة لتاريخ عصر اسماعيل ؟

حظى عهد الخديو اسماعيل باهتمام بالغ من الدارسين لأسباب عدة ، لعل أهمها رغبة الخديو فى نقل مظاهر الحضارة الأوروبية الى مصر لتكون قطعة من أوروبا ، واهتمامه بتدعيم استقلال مصر عن الدولة العثمانية ، وامتداد الادارة المصرية فى عهده لمساحات واسعة فى أفريقيا خاصة ، فقد رفع العلم المصرى على مملكة أونيوورو المتاخمة لبحيرة ألبرت شرقا سنة ١٨٧٢ • وأعلن ملك أوغندا ولاءه لحكومة مصر وتم توسيع نطاق الادارة المصرية فى مديريةى خط الاستواء بعد ذلك وضم كل منطقته البحيرات ، وضم زيلع وبربرة سنة ١٨٧٥ ، واعترف الانجليز بسيادة مصر فى الصومال • وكانت كل هذه المناطق تعد مديريات أو محافظات مصرية ••• الخ •

لقد كان عصر اسماعيل - اذن - عصر توسع • كل هذا معروفة مطروق ، لكن هذه الرحلة تضيف الى معارفنا التاريخية أبعادا طريفة ، فقد أنتشرت فى مصر فى ذلك الوقت الطرق الصوفية ذات الطابع الجهادى • حتى وان كان هذا الطابع مظهريا أو غير حقيقى • والطابع الجهادى يخالف تماما روح الطرق الصوفية فى مصر • وعلى أية حال فان الطابع الجهادى لهذه الطرق الصوفية فى مصر آنذاك لم يخرج عن كونه تقييدا فى تصميم رقصات الدراويش (وهو ما يسمى حلقات الذكر) على النحو التالى :

- بينما يدور الدراويش دورانا عنيقا حول نفسه يرفع إحدى يديه الى أعلى باسطا كفه ، بينما يمد يده الأخرى للأمام ، وقد قبض كفه بشدة (كأنه يقبض على سيف ، وهو فى الحقيقة يقبض على الهواء) ، وهذا التصميم الفنى للرقصة (حلقة الذكر) يعنى أن الدراويش - بيده المقبوضة - يحارب الكفار ، وأنه فى مقابل ذلك يطلب عطايا الرحمن التى يتلقاها بيده المبسوطة (يد مبسوطة لتلقى العطايا - ويد قابضة على سيف وهمى) •

- عندما تأخذ الجلالة أحد الدراويش وتعتريه (الدوخة) نتيجة الدوران الشديد حول نفسه ، فإنه ينطلق الى شوارع القاهرة وحواريها صائحا : الجهاد •• الجهاد ضد الكفار •• الموت للكفار •• وهكذا •

لقد وظفت الدولة المصرية اذن الطرق الصوفية لخدمة أغراضها • لاضفاء طابع جهادى على التوسع المصرى فى أفريقيا • لقد لعبت الحارق

فى مصر دور الوسيلة الاعلامية لصالح الدولة ، وهو دور - على أية حال - لا يتناقض مع طبيعتها .



وقد تعرضت القناطر الخيرية لعملية ترميم واصلاح فى عهد اسماعيل ، وقد زار الأمير ردولف هذه القناطر ورد ما كان يريده أعداء مصر فى ذلك الوقت وهو أن سلبيات هذه القناطر أكثر من إيجابياتها ، وأنها مشروع غير اقتصادى لأن ما أنفق عليها يفوق فوائدها . الخ ، وقد أصبح معروفا أن القناطر الخيرية من أعظم المشروعات التى أنشأها محمد على .

القدس الشريف :

سنتناول فى مقدمة الجزء الثالث من هذه الرحلة بالدراسة المفصلة شيئا ما - ما تعرض له الأمير من نقس مريب لقصص اليهود المتعلقة بالأماكن المقدسة فى فلسطين ، وما قرره من أن الاسلام هو الأمين على مقدسات القدس لأنه دين - على حد تعبيره - يخدم بين دفتيه كل الأديان السابقة عليه بصورة نقية بعيدة عن الخرافة .

أما الذى يعيننا الآن ، فهو أن الأمير كان يضع العهد القديم نصب عينيه وهو يجول فى فلسطين ، بل حتى وهو يجول فى مصر ، فقد كان مهتما بالبحث عن اسم فرعون موسى وعن مواضع الخروج (خروج اليهود من مصر) ، وكان مهتما بالآثار المحيطة بنهر الأردن وما يقال له قبر موسى عليه السلام . الخ . لقد كان ينظر للعهد القديم ككتاب تاريخ ، رغم أنه اعتبر بكاء اليهود عند حائط المبكى نوحا من أنواع « التعصب والخرافة » .

ويهمنا أن نقول أن النقد الموجه لروايات العهد القديم أكثر من أن يدخل تحت حصر ، لكننا نفضل هنا - لأسباب علمية - الرجوع لكتاب « نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم » الذى جمعه ونشره جيمس بريتشارد (عربي وعلاق عليه د . عبد الحميد زايد) وراجع محمد جمال الدين مختار - ونشرته هيئة الآثار المصرية) ، فالحقائق الأساسية التى سيطالها القارئ فى السطور التالية يمكن الوصول إليها فى مقدمة معرب هذا الكتاب التى ذكره . « لم يأت كتاب العهد القديم وحيا كما لم يكتب دفعة واحدة . وهو عبارة عن سجل تاريخى يختلف الناس فى أقسامه وعدد أسفاره » ولما كان عدد حروف اللغة العبرية اثنين

وعشرين حرفا ، فإن عدد أسفار العهد القديم عددها اثنان وعشرون ،
بيضا يرى آخرون انها أربعة وعشرون سفرا ، ويميل فريق ثالث الى أن
عدد الأسفار هو تسعة وثلاثون سفرا . وقد تطلب وضعه حوالى ألف
عام .

واللغة العبرية ليست هى اللغة الأولى أو اللغة الأم للعهد القديم . .
وقد فكر اليهود فى جمع الموجود من الأسفار المقدسة سواء المحفوظ فى
ممدور الناس أو المدون . . ولا تتفق التوراة السامرية التى ترجع للقرن
الرابع قبل الميلاد مع الترجمة السبعينية للتوراة الا فى الثلث فقط .

وقد تمت الترجمة السبعينية أيام بطليموس الثانى فى بلاد بلطوس
(٢٨٥ - ٢٤٧ ق م) وترجع تسميتها بالترجمة السبعينية الى أن
القائمين عاينها كان عددهم اثنين وسبعين عالما (ستة من كل سبط من
أسباط بنى اسرائيل ٦ × ١٢ سبطا = ٧٢) ، وتمت هذه الترجمة فى
الاسكندرية ، وهى ترجمة غير دقيقة ، ثم ظهرت ترجمات أخرى بعد ذلك ،
وتطورت أسفار العهد القديم فى عصور مختلفة وتنقسم هذه الأسفار الى
ثلاثة أقسام رئيسية هى : التوراة (تورا) والأنبياء (نبيم) والكتابات
(كنبيم) ، ولا توجد وحدة فى أسفاره التى امتد جمعها منذ ١١٠٠ ق م .
تقريبا حتى القرن الثانى قبل الميلاد تقريبا .

وفى القرن التاسع عشر أظهرت الآثار المكتشفة إمكانية إعادة العهد
القديم الى أصوله فى حضارات الشرق ، وظهرت دراسات تثبت اعتماد
العهد القديم على العقائد البابلية ، وقد أشار الدكتور فؤاد حسنين (١)
التخصص فى الدراسات العبرية أن التوراة الحالية العبرية ليست هى
صحف موسى عليه السلام ، لأن العبرية لم يعرفها موسى عليه السلام
ولا عرفها اليهود فى عهده ، فموسى عليه السلام ولد فى مصر وتسمى
باسم مصرى وتعلم لغة المصريين الهيروغليفية وتكلم بها وكذلك كل اليهود
الذين كانوا فى مصر ، وإذا كانوا يتحدثون لغة أخرى غير الهيروغليفية
فإن هذه اللغة لابد أن تكون الآرامية وليس العبرية ، واللغة العبرية مقتبسة
من الكنعانية التى هى الأم لكل من العبرية والفينيقية والموابية ، فاللغة
العبرية إذن لاحقة جدا لموت موسى عليه السلام ، فصحف موسى والتوراة
لم تدون بالعبرية بل بالمصرية القديمة ، ويرجع الدكتور فؤاد حسنين أن
التوراة الحقيقية وثيقة الصلة بالعقيدة المصرية التى دعا اليها أخناتون .

(١) فى كتاب التوراة الهيروغليفية ، القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ،

١٩٦٨ ، ص ٥٧ - ٥٩ .

وكل هذا التحليل لا ينفي عقائد المسلمين الراسخة في أن التوراة من عند الله سبحانه وتعالى . ولكن أين هي ؟ فاعتبار العهد القديم مصدرا وحيدا للحقائق التاريخية القديمة فيه تجاوز خطير للمنهج العلمى السليم .

النساء في رحلة صاحب السمو :

مر الأمير ردولف مرورا عابرا على جزر البحر الأديراتى والساحل اليونانى ، فأبدى ملاحظات عابرة عن النساء ، وفى مصر لم تسترعر النساء كثيرا انتباهه ، لكنه توقف أمام بعض الرقصات الشعبية ولم يكن رآيه فيها بلوبا باية حال . ولما غادر مصر متوجها الى يافا فالقدس فبيت لحم تجده يتوقف كثيرا أمام جمال نساء بيت لحم ، ولم يعفهن من التمعن فى مقائنهن حتى وهن راكعات ساجدات باكيات فى الكنائس والأماكن المقدسة الأخرى .

ويقول عن الشابات فى الجزر اليونانية أن فيهن ذوات « وجوه جميلة صبوحة ، أما العجائز منهن - فبالهول منظرهن ، « إذ لا يطيق النظر اليهن إلا أهل الجنبوب الأوربي » ١ .

يقول الأمير : « لم أر أبدا نساء أجمل من نساء بيت لحم . لهذا العدد الكبير من النساء الجميلات فى مدينة واحدة ١٩ ٠٠ أن المسر لا يستطيع أن يلاحق بعينه هنا كل النساء الجميلات . عاصفة من الجمال تتلوها عاصفة أخرى . أنهن نماذج من العذراء مريم النبيلة » (ص ٣٠٦ من النص الانجليزى - ص ٩٣ ج ٣ الترجمة العربية) . ولم يعف الرجل جميلات بيت لحم من نظراته المتغلغلة حتى وهن يصلين ويتعبدن . يقول وهو يراقبهن فى مصلى المهد : « وتزاحمت الجموع امامنا على المواضع المقدسة تحت الأرض ، وركعت بعض نسوة بيت لحم الجميلات جمالا مدهشا - على الصخرة الجرداء . لقد كن متألقات تألقا غريبا فى ضوء المصابيح الباهت ٠٠ » .

وتقدمت إحدى نساء بيت لحم بالتماس للأمير لم يحدثنا عن محتواه ، لكنه وصفها بأنها شابة جميلة ، وراح الرجل يتابعها بعينه - كما قال هو - وهى مقبلة لتقديم الملمس ، كما راح يتابعها بعينه ، وقد استدارت ، ولم تكف عيناه عن ملاحقتها حتى اختفت من أمام ناظره . لقد رأى فيها جمالا هادئا ، كما قال هو - كجمال العذراء مريم .

ولا نتوقع أن يتغلغل الأمير ردولف فى الحياة المصرية كما تغلغل الرحالة بيرتون مثلا (صدرت ترجمة رحلته فى سلسلة الألف كتاب الثانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب) . ذلك أن الأمير أتى لمصر فى مسوكتب رسمى ، وكانت كل زيارته وتجولاته واضحة فى النور . لذا ، فرحلته كانت فى مجال وصف المعالم الجغرافية والأثرية واستدعاء المعلومات التاريخية ، أكثر مما هى مفيدة فى وصف نفسية الشعب وتوجهاته .

لقد ذكر ردولف عنى سبيل المثال أنه « لا توجد إشارة بل أدنى إشارة لوجود طبقة المومسات أو نساء المتعة بالاسكندرية ، تلك الطبقة التى نعرفها فى فيينا أو بين ٠٠ وغالب المومسات فى مصر - كما قيل لى - آتين من النمسا ٠٠ » ويبدو أن الرجل الطبيب صدق ذلك .

الأزهر والتعليم الدينى فى رحلة الأمير ردولف :

أشرنا الى أن الأمير أشار فى رحلته الى الأزهر الشريف باعتباره معملا لتفريخ التعصب فى العالم الإسلامى وليس مصر فحسب . ونحسب ان هذا الرأى من قبيل الفكرة الثابتة التى حملها الأمير معه ، ولم يكن ما رآه ليغير شيئا حتى لو كان مناقضا تماما لفكرته هذه . ولم يكن الأزهر الشريف فى حالة ازدهار فى الفترة التى زاره فيها ، فالمرخ عبد الرحمن الرافعى يحدثنا أنه : « لم يكن لعلماء الأزهر فى عهد اسماعيل شاذى كبرى فى تطور الأحوال العامة سياسية كانت أو اجتماعية ، فقد ضعفت مكانتهم عما كانوا عليه أيام الحملة الفرنسية وأوائل عصر محمد على » لكن الرافعى - - على أية حال - يعود فيقول انه « يلوح له أن الأزهر ومن اتصل به من العلماء والطلبة قد استردوا فى عهد اسماعيل شيئا من المكانة التى كانت لأسلافهم من قبل ، فقد نال بعضهم مكانة عالية ومنزلة سامية فى الهيئة الاجتماعية . »

ويمكن ارجاع مثل هذه الأفكار المتعصبة التى حملها الأمير وغيره ضد الأزهر الشريف الى ما عرف عن الأزهر من دور جهادى أثناء الحملة الفرنسية على مصر وتصدى الأزهر للدفاع عن رأى الجمهور ياجيسار السلطان العثمانى على تولية محمد على أمور مصر ، وقيام الأزهر بالتوعية الدينية .

ولا نتوقع - كما سبق أن المعنا - أن يصل الأمير ردولف لجسور الأمور ، على نحو ما وصل رحالة خبير كرتشسارد بيرتون الذى زار مصر

سنة ١٨٥٢ وأشار بصراحة ووضوح الى أن الأزهر الشريف والتعليم الجاد هما الخطر الحقيقي - على المستوى الشعبى - اللذان يتحتم على أى تدخل أجنبى فى مصر أن يواجههما ، أما قوى الدراويش أو التنظيمات الصوفية فلا خطر منها ، أما الأمير ردولف فقد أخذ الأمور وفقا لمظواهرها فاعتبر حلقات الذكر التى يقيمها الدراويش دليلا على تعصبهم وخطورتهم واحتمل قيامهم بحركات جهادية • وحقيقة الأمر أن الأزهر وعلماء مصر بذلوا - ولا زالوا - جهودا مضنية لتنقية الحركة الصوفية فى مصر من كثير من الخرافات والأمور الخارجة عن الدين •

كلمة أخيرة :

من الضرورى أن ننوه هنا الى عدة أمور مهمة :

١ - أن الأمير ردولف هو صاحب السمو الامبراطورى والملكى ، وأنه لم يكن وليا للعهد ، وبالتالي ليس أرشيدوق من الناحية الرسمية ، ومع هذا فقد عرفت رحلاته برحلات الأرشيدوق •

٢ - كتب الأمير رحلته بأسلوب انجليزى سلس لكننا لم نستطع الاستدلال على المقابل العربى لبعض القرى المصرية والفلسطينية ، فكتبناها بالحروف اللاتينية كما هى دون ايراد المقابل العربى •

٣ - مجمل أفكار الرحلة لا تصدم القارئ العربى ، ومع هذا فقد أورد الأمير بعض الأفكار غير الصحيحة أو التى لا يرضى عنها القارئ العربى فعلقنا عليها فى الصفحات نفسها ، وأفردنا جانبا للتعليقات المفصلة عن كل فصل بآخر الكتاب •

والله من وراء القصد

د • عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الفصل الأول

الاستعداد للرحلة - مغادرة فيينا - السفينة
ميرامار - ميناء ميرامار - صوفو - زانطة -
انطراد الروسى - حديث عن الساحل الالبانى -
حديث عن ساحل استيريا ، زيارة دير وكنيسة
أورتوذكسية - وصف اهل الشرق الادنى (يدخل
فيهم اليونانيون) - تعرض السفينة لعاصفة -
القمامة والرائحة النتنة فى زانطة والساحل
الدماشى - اهل زانطة والثرترة على المقاهى -
كاهن المعبد يصطاد الأرانب - جبال كريت -
سواحل مصر المقدسة - رسوم الفنان المرافق
للرحلة - تعليقات المترجم *

اتخذت القرار للقيام برحلتى لبلاد الشرق بسرعة *
وعلى عجل تم الاعداد لها * فتصفحت تصفحا غير وثيد كتباً
عن الرحلات لبلاد الشرق ، وقبل أن تبدأ الرحلة بأيام قلائل
سبقنا متاعنا ، كما سبقنا المسثول عن الثياب ومعه كل
ما يلزمنا ، والخدم والبنادق (١) وقدر كبير من الدخائر
وعدد من الكلاب الى تريست Trieste ، حيث كان ليخت
ميرامار فى انتظارنا ليكون رهن اشارتنا *

وفى التاسع من شهر فبراير تجمعت مجموعتنا المسافرة
فى المحطة الجنوبية فى فيينا Vienna (٢) فى مساء يوم
شتاء قارس البرودة فالجليد يغطى الطرقات ، والسحب

الكثيفة تحجب السماء - انه جو كثيب لكنه ملائم للبحار ،
فجنسنا الاوربي البائس تعود - هي غالب الاحيان - على
تحمل هذا المناخ الفادر .

وكنت قد عدت من رحلة سريعة وطويلة للغرب الاوربي
البعيد منذ يومين لاودع صديقا صدوقا لمتواه الاخير .

وبهذه الأفكار الحزينة خطوت لأركب حافلتى * لفسد
خيم البرد الشديد الذى نتحملة الان وحدنا - أملا بان نستمتع
عما قريب بدفء الشرق المتوهج . وتحرك القطار ناقتا
دخان - بعد أن أطلق صفيرا - من المحطة ، فودعنا ليل حالك
السواد كالقار ، وجليد متساقط ورقائق ثلج غطت كل شىء ،
وعواصف .

لقد تجمعت مجموعتنا الصغيرة المسافرة فى عربة النوم
بالقطار ، وكانت هذه المجموعة رغم قلة عددها تتكون من
أشخاص محبين للرحلة والمغامرة هم عمى دوق تسكانى الأكبر
وكونت فالديبرج Waldburg والقس أبوت ماير Abbot Mayer
والماجور فون اشنباشر Von Eschenbacher والكونت جوزيف
(يوسف) هويوس Hoyos ، والفنان بوسنجر Pausinger
وأنا ، وكنا جميعا فى طريقنا للحج (٣) لبلاد الشرق ، وقد
صحبنا الكونت هانز فلتسيك Hans Wilczek الى ساحل البحر
ومنه اتخذ طريقه الى ايطاليا * وسرعان ما انسل الواحد
اثر الواحد من مجموعتنا لينعم بالراحة ، ولم يبق الاى
وفلتسيك فرحنا نتجاذب أطراف الحديث حتى غلبنا النوم
أخيرا بعد أن أوغل الليل .

لقد أيقظنا البرد الثلجى فى الصباح الباكر والتصق
بعضنا ببعضنا الآخر فقد كنا نرتعد . وقد أخبرنا الحارس
أن الترمومتر يشير الى عشرين درجة برودة (٩)(٤) وأن
رقائق الجليد التى تتخذ شكل سعة التخييل فوق النوافذ تؤكد

صحة ما يشير اليه الترمومتر * لكننا سننعم قريبا بنخيل
أخرى متألقة في صيف مصر الهادى *

وشمخت أدلسبرج Adelsberg وسط الجليد الكثيف
وشكلت آخر غابات للصنوبر منظرا جميلا من مناظر
الشتاء ، ومكنتنا السماء الصافية من رؤية منظر على البعد
للمنطقة من كارست Karst الى جبال الألب * لقد كان
الجليد فى كل مكان ، فحتى فى نابرسينا Nabresina
كنا لازلنا نرى بقعا بيضاء ، الا أننا كلما توجهنا للجنوب
توهج النور ، فغدت السماء أكثر زرقة وأشعة الشمس أكثر
دفئا - وكان هذا الدفء وهذه الزرقة هما أول تحية نتلقاها
من الجنوب الشمسى * وامتد البحر أمام نواظرنا رائعا
وهادئا وناعما كصفحة بركة جبلية صقيلة كمرأة * لقد كان
البحر الأدرياتي Adriatic أزرق دافئا رائعا ، ولم يكن
كالمحيط الرمادى الكثيب الذى كنت قد رأيته مؤخرا (٥) *
وقد كان اثنان من رفاق رحلتى يريان هذا الجمال الطبيعى
الرائع للبحر الأدرياتي للمرة الأولى فى حياتهما ، فراحا
يحملقان فى المناظر بدهشة واعجاب *

لقد توقفنا عند محطة ميرامار Miramar ثم اتخذنا
سبيلنا الى ميناء صغير * لقد كان منظر القلعة المقامة بموقع
رشيق فوق صخور تبرز من المياه ذات الأمواج الصاخبة وبين
خضرة الجنوب التى لا تنضب - أكثر المناظر جدارة بأن
تكون موضوعا للوحة فنان * وبالقرب من هذه القلعة رست
سفینتنا التى تحمل الاسم نفسه (ميرامار) ، ولما نظرت لميناء
ميرامار طافت الذكريات الجميلة بخاطرى كأنها حلم ، لقد
رأيتهما وكأنما ألتقى بصديق قديم فقد سبق لى أن قمت
برحلتين اليها (الى ميرامار) *

وانتظر قارب عند نهاية السلم وحملنا سريعا للسفينة ،
وعند الممر وقف القائد روديجر Rodiger قبطان الانقاذ

البسرى وصعدنا لظهر السفينة ، بينما يعزف السلام النمساوى
المجرى واستعرضنا مجموعته العاملين على ظهر السفينة الذين
اصطفوا لاستقبالنا . وكان المسؤولون (الصباط) الآخرون
هم اللسنانت ، كونت خورنسكى Chroinsky (الذى سبق
أن قمنا بصحبته برحلتى الى اسبانيا) بالاضافة الى هاليم
Halm وساكس Sacks ورزنك Resneck
وقد صحبنا الدكتور هيرش Hirsch كطبيب للرحلة ، وحيث
قد عرفت الدكتور هيرش هذا خلال رحلته سابقه الى كورفو
Corfu (٦) .

لقد ألقيت نظرة عجل على السفينة جعلتنى أكن اعجابا
لها ، وارتبطت كبائنها وجناحى الخاص ، وكل موضع بها ،
فى ذهنى بكثير من الذكريات السعيدة .

وقد صحبنا فيلتسيك الى السفينة ، وكان قد قضى مسمى
متد عامين أياما طيبة ، وتناول معنا طعام الغداء ثم تركنا
عائدا للشاطئ ، وبعد دقائق قليلة كان يلوح لنا بتحيةة
الوداع من شرفة القلعة .

وبقينا جميعا فوق سطح السفينة نمتع البصر بالمنظر
الجميل ، فقد كان ضوء الشمس يغمر قلعة دينسو Duino
وميرامار ومرتفعات كارست Karst شديدة التحدر ومدينة
تريست ذات الموقع الجميل ، وبدأت هذه المناظر أول صورة
باعثة على البهجة فى رحلتنا هذه . ومررنا بالقرب من قطع
الأسطول النمساوى والطراد الروسى أسكولت Ascolt .
وكانت السفن الحربية حتى وهى تحيى تبدو مستعدة
للقتال (٧) ، وانسابت من سفينة الأدميرال النمساوية ألحان
نشيدنا الوطنى .

ولما اقتربنا من الطراد الروسى أرسلنا بتحيةة وقور —
لكنها جميلة « ترنيمة القيصر Hymn to the Szar » .

وسرعان ما بدأت تريست تتلاشى أمام نواظرننا فقبـد
أبحر سمينتنا جنوبا على طول ساحل استيريا Isterian Coast (٨)
وبقينا لبضع ساعات فوق سطح السفينة • وكانت درجة
الحرارة — حقيقة — منخفضة ، لكن الجو كان بالنسبة لنا —
مبهجا بعد أن تركنا شتاء وسط أوروبا • وقد شغلنا أنفسنا
فى فترة ما بعد الظهر بترتيب اللبائن ، وأفضى كل منا
بما فى صدره للأخر وتنالفنا تالفا اجتماعيا لطيفا بعد أن
تركنا سطح السمينه ، وتناولنا عشاءنا فى وقت متأخر مما
يجب أن نأكله المساء تنمضى دون ملل ، فأدركنا وقت النوم
سريعا •

وقد أدخر لنا اليوم الحادى عشر من شهر فبراير سماء
ذات سحب داكنه ، ورياحا وبحرا هائجا وبرودة ، فأصبح
معظم المسافرين مرضى ، وقد ترك كل هذا اترا واضحا على
كثير من المسافرين فتعكر مزاجهم فجلس الجمع الجميع —
مرضى واصحاء — على سطح السفينة وراحوا يراهبون
الامواج الهائجة لبحر مخادع لعوب • وفى حوالى الساعة
العاشرة صباحا تبدى لنا جرف ليسا Lissa شديد الانحدار ،
ونظر كل نمساوى نظرة مشوبة بالماطفة والشجن لتلك
الجزيرة التى تعد شاهدا على الأعمال البطولية النبيلة
لبحارتنا •

وفيما يتعلق بمنظر ليسا Lissa فلا شىء فيه يجذب
الانتباه • انها جزيرة قاحلة ذات جروف شديدة الانحدار
وتلال متشابهة لا تباين بينها ، وليس فيها ما يحث الفنان
المبدع على الابداع •

وعلا موج البحر بعد الظهر ، وأبرقت السماء وأرعدت
مساء ومضى اليوم رتيبا فقد منعنا حركة السفينة واهتزازها
من قطع الوقت بالقراءة أو الكتابة ، كما كان مسارها فى
عرض البحر بعيدا عن الساحل ، ومضى الليل أكثر رتابة ،

ولم يكن امام المصايين بدوار البحر من حل سوى البقاء في
أماكنهم بينما تمضي الساعات فاترة مملة ، واهدانا اليوم
الثاني عشر من شهر فبراير عند الشروق بحرا أكثر هدوءا ،
ولما اسرعنا الى سطح السفينة حيثنا — بمنظرها — قسم الجبال
الألبانية (٩) التي كستها ثلوج كثيرة .

ولجبال ألبانيا جاذبية خاصة للمسافر ، فمن السفينة
تراها تشكل طبقات كالشرفات وتجذب البصر بوديانها
الصخرية الجميلة ، وتثير جروفها الحادة التي تهبط شامخة
حتى البحر اعجاب الرائي .

وبالنسبة لي فان جبال الجنوب كانت أكثر جاذبية بكثير
من جبال الألب في وسط أوروبا ، فجبال الجنوب بتكويناتها ،
وما يحيط بها من ضوء ودفع تشكل مع زرقة السماء العميقة
وخضرة الجنوب منظرا خلابا ، يجذبني أكثر من غابات
الصنوبر ذات المنظر النمطي التي تغطيها سماء مظلمة كثيفة
صبغها الرصاص بلونه .

ولا يرى المرء على الساحل الألباني الا قليلا من المدن
الفرادي ، اذ يلج هنا وهناك منازل مسطحة الأسقف مظللة
بالوان فاتحة تشكل قرية أقيمت على مدرجات فوق المنحدرات
والأماكن غير المنحدرة بين أشجار السرو (١٠) العابسة
وأشجار الزيتون الخضراء التي اعتري خضرتها لون رمادي .

وقبل الظهر ظهرت لنا جزيرة كورفو Corfu اليونانية
الجميلة والى الغرب منها جزر مريلا Merlera (١١)
وجزر فانو Fano ، وهي جزر صخرية صغيرة ، والممر بين
جزيرة كورفو والبر من أجمل الممرات في العالم بلا شك .
والى الشرق تمتد الجبال الألبانية حول حوض بوترينو
Butrino وواديه ، وثمة بحيرة جميلة بين الجبال في
وسط وادي بوترينو ، ويحيط بها (أي بهذه البحيرة) غابات

ممتدة من البلوط ومستنقعات ضخمة ، وتشكل هذه الشواطئ
وتلك المستنقعات تناقضا حادا مع الجبال البحرية الجرداء
التي يرى المرء قممها الشامخة فى خلفية الصورة على البعد .

والى الغرب يرى المرء ناحية اليمين الجزيرة الخضراء
بتلالها ذوات التكوينات الجميلة وجبلها الشامخ دكا Decca
وأشجار البلوط والزيتون ، وأشجار السرو الكثيرة وأشجار
الفاكهة المزهرة ، وتتناثر فى كل مكان فى الجزيرة المنازل
البيضاء الباهرة والقرى . حقيقة ، ياله من تناقض ، فإذا
نظرنا للشمال وجدنا البر الألبانى غير المزروع والذي يسكنه
جبلليون محبوبون للقتال ، بينما الى اليمين تقبع كورفو المزدهرة
التي حولها اليونانيون المحبون للتجارة والمتسمون بالمرونة
الى حديقة غناء .

وعبرنا خليج ابسا Ipsa (١٢) ورأينا قلعتين ومدينة
كورفو ذات الموقع الجيد على قنة الجبل الداخلة فى البحر
وفى موقع متوسط على هذه القنة .

وكلما رأيت كورفو استولى هومر (١٣) على فكرى طوال
فترة مرورى بين هذه الجزر الأيونية (١٤) ، وفى أيام
صباى عندما كنت أقرأ الأوديسة (١٥) كنت أتخيل هذه
الجزر خضراء يغمرها نور أزرق تحت سماء أشد زرقة ، وقد
غمرتها أشعة الشمس الضاحكة فأضفت عليها لونا ذهبيا .

وتفاصيل المنظر ممثلة فى الأشجار المنتشرة فوق
الصخور ، وقد تسلق فوقها اللبلاّب فبدأ كضفائر لها ،
والشجيرات المزهرة والينابيع الرقراقة ، كل أولئك يذكر
المرء بمناظر الباليه السحرية ، ويدعونى الى أن أطلب الصفح
ان شبهتها - أى هذه المناظر - تشبيها دنيويا ، فغالبا
ما يتوقع المرء أن يرى ديانا (١٦) وقد طوقت خصرها
ولوحت برمجها الذهبى وهى خارجة مع الدغل . لكنه كان

علينا ان نعود لأرض الواقع ، فقد سارت السفينة مرامار بالمرب من ساحل المدينة حيث كان يتحتم علينا التوقف لبضع ساعات للتزود بالمدعم ، وكورفو التي اعتادت أن تكون هادئة ممعنه في الهدوء ، بدت الآن وكأنها تلبس لبسوس الحرب ، نفى جزيرة فيدو Vido المواجهة لكورفو اقيم معسكر ، وامتلات الجزيرة الصغيرة بحشود العساكر ذوي السترات الزرقاء . وكانت بعض السرايا تطلق النيران على الأهداف ، وراحت قوارب عديدة تنقل المسافر الى احدى البواخر ، وكما علمنا - بعد ذلك - فان احدى الكتائب كانت تعبأ في الجزيرة لارسالها في هذا المساء لليونان (١٧) ، لقد كان الهيلينيون يحلمون حلم البطولة ولم يكن أهل كورفو الطيبون أقل استثارة ، فقد ظنوا أن أيام ليونيداز (١٨) Leonidas سوف تبرز من جديد .

وبينما كنا في المرسى ، ظهر الدكتور ناثبا عن القنصل الذي كان يعاني من وعكة صحية وكذلك ظهر خادم القنصلية Valet de place الذي كنت أعرفه في ظروف سابقة ، وهو رجل ضئيل بشع المنظر ، ومن سوء الحظ أن هذا البشع كان من سلالة الاغريق ذوي الوسامة .

وقد فجع معظم رفاقي الدين لم يزوروا الجزيرة من قبل بالأخبار التي أفادت أن مرض الجدرى سائد في المدينة . لذا ، فقد كان ممنوعا تماما أن ننزل للمبر ، فقضينا فترة ما بعد الظهر في نزهة في زورق ملحق بالسفينة ، ومررنا بالقرب من المدينة ، وكانت المساكن القديمة المتزاحمة ، مقامة على مدرجات ، درجة تعلو درجة ، وكانت جدرانها بيضاء متألقة وتوافدها خضراء وأسقفها مستوية ، وكان طابعها العام يذكر المرء بإيطاليا ومع هذا فكان ثمة طابع اغريقي معين مرتبط بكل ملمح من ملامحها ، ويزيد من قوة هذا الطابع الاغريقي ويوضحه تلك القباب المستديرة التي تعلو الكنائس الأورثوذكسية .

ولما مررنا بالسور الصخرى للقلعة الفاطس عموديا فى
البحر سارت سميتتنا على طول الجانب الجنوبي لقته الجبل
الخارجيه منه والداخله فى البحر، فرايناها قد عطتها المدايق
الغنام ! والفيالات الرائعات لاهالى دورفو الاغنياء ، وراينا
المقر الريفى الملكى ذا الموقع الجميل والبندىكونيسى
Pondikonsi وضاحية كاستندرادس Kastrades ، والى
الأدنى منه - على الساحل بين غابات أشجار الاس العطرية -
تقبع بقايا (خرائب) معبد اسكولاييوس Aesculapius (١٩)
القديم ، وواصلت سفيتتنا الابحار الى خليج كارداكيو
Karadakio الذى يموق مدخله وجود جزيرتين صغيرتين ، وفى
المقدمة صخرة ضخمة تغطيها أشجار البرتقال والسفقرجل
والسرو ، وضريح اغريقى قديم ومنزل لراهبين تابعين
لذهب القديس بازل Basil وتسمى هذه المنطقة بونديكونيس
Pondikonis ، وكانت فى أصلها سفينة أوديسيوس Odiseus
(٢٠) ثم سخطها بوسيدون Poseidon (٢١) فجعلها حجرا :

لكن صانع الزلزال اقترب منها ،

وصفعها بيده المفلطحة صفة حاسمة ،

وسخط السفينة حجرا ،

وغرسها هناك فى هذه البقعة ،

لتكون شاهدا ،

على أن الخير قد ولى !

لقد تذكرت هذه الأبيات الشعرية وغرقت فى أفكار
بعضها عن أيام الكفاح ودراسة الألعاب الرياضية ، وبعضها
عن العالم السحري للاغريق القدماء ، وخطونا فوق الجزيرة
وتسلقنا جانبها .

وقد حبيى راهبان الغرباء القادمين ، وكان الراهبان
يلبسسان عباءتين زرقاوين مهترئتين ، وكانا حاقيين ،
وشعرهما طويل ، ولحيتهما مهملتان غير مرجلتين •

وكانت الكنيسة على الطراز الأورتوذكسى الحقيقى ،
فهى مقسمة الى قسمين يفصل بينهما حاجز مذهب ببدح ،
وعلى جدرانها صور مختلفة لقسيسين وزخارف مذهبة
وبعض الكتابات الاغريقية ، وأمام الكنيسة أشجار فاكهة
مزهرة تبهج العيون القادمة من أرض الشتاء فى الشمال •
والمنظر من الجزيرة فى اتجاه كورفو والبحر منظر جذاب
فاتن ، وموطن مناسب للنسك العالمين •

وعلى أية حال ، فقد كان يعوز هؤلاء الراهبان البؤساء
النظرة المتأملة ، كما كان يعوزهم روح الورع ، وانما كانوا
فى حالة ذهول كامل ، وربما كان هذا لرتابة الحياة التى
يحيونها • وكان الراهب الأكثر شبابا عاشقا للقطط ، وكان
معه رهبان آخرون يبدوون وكأنهم يكادون يموتون جوعا ،
وكانوا يموءون بشكل يدعو للشفقة والرثاء ، وكانوا
يتبعون خطى هذا الراهب الأكثر شبابا • وكان فى الجزيرة
المواجهة مبنى له برج يقطنه نساك معتزلون • وبعد زيارة
قصيرة تحولنا الى مجموعة صيد فتجولنا بقواربنا فى خليج
كارداكىو Kardakio الضحل •

وتبعثر جمع طيور البلشون (٢٢) (مالك الحزين)
والفاق (٢٣) والغواص (٢٤) والبط والنورس (٢٥) عند
محاولتنا الاقتراب •

واليونانيون — مثلهم فى ذلك مثل الايطاليين — يقتلون
كل شئ ويبدونه ، لذا فرياضة الصيد فى هذه المناطق
ليست متعة أكيدة • وقد نجحت — بعد محاولات عديدة —
فى اسقاط أحد طيور الغاق ، وابتهاجا بهذا وجهنا وجوهنا
صوب الوطن (٢٦) •

ولقد كان فى رؤيتنا لسهل بينيزا Benizza الأخضر
الجميل ، وجبل هوجيوى دكا Hogioi Decca ذى القمة الشامخة
— خير عزاء لنا عن فشلنا فى الصيد ، وسرعان ما عدنا الى
سفينتنا ميرامار • لقد بدأ الليل يرخى سدوله ، واصبحت
البرودة شديدة ، وبعد العشاء كانت فى انتظارنا ليلة كئيبة
بعد هذا النهار الهادئ •

واستيقظت مبكرا صباح الثالث عشر لأتحقق — بعد أن
أصابنى غثيان غير قليل — من أن كل شئ يدور حولي ،
فالمناضد والمقاعد والأسرة ، وكل شئ حولي كان يرقص ،
فالسفينة كانت تدور وتهتز بشدة ، وتصر صريرا مفرعا
بفعل الأمواج الصاخبة •

والقيت نظرة عجلي على العاصفة العنيفة ، لقد كانت
الأمواج ترتفع وكأنها جبال ويتحطم بعضها فوق بعض ، ثم
تصير زبدا بلوريا • وربما كانت العواصف البحرية هى
أشد المناظر التى تقدمها الطبيعة هولا خاصة اذا عاون البرق
والظلال والسحاب فى رسم الصورة • لقد كانت السحب
أنشد تغطي السماء وراح ضوء البرق يخطف البصر بين
الفينة والأخرى •

لقد كنا بعيدا عن جزيرة سيفالونيا Cephalonia
التي كانت جبالها الشاهقة تعلو السحاب، وكان الجبل الأوسط
— مونت نيرو Monte Nero — هو الأجمل والأكثر شموخا ،
وكان الجليد الأبيض يكسو قمته • انه جبل اينوز القديم
* The ancient Ainos

واعترانا الخوف من أن يغدو الجو أسوأ مما هو عليه ،
فقد كانت المنحدرات الصخرية متجهة عابسة ، وكانت
الظلال رمادية غير ودودة •

وشقت سفينتنا الجسورة طريقها بين الامواج سقا
حشيثا لكنه بطيء ، وفى منتصف النهار مرت على طول الحافة
الغربية لجزيرة زانطة Zante (٢٧) ذات الجبال . ان منظرها
فى حاجة لريشة فنان . ووصلنا الى طرف الجزيرة الجنوبي .

وازدادت قسوة العاصفة فقرر القبطان ان يمود سمينته
فى قناة زانطة (الممر البحرى بينها وبين البر) باعتبارها
ملجأ آمنا وهكدا عدنا المهرى بدلا من ان يمطسح - فى
البحر - مسافة اطول . لقد وصلنا يبطء لطرف الجزيرة
الجنوبى ثم عدنا الى القناة (الممر البحرى) الواقع بين
الجزيرة والبر الرئيسى المواجه لها . وسرعان ما قدمت لنا
الجزيرة الحماية الخافية من الرياح الغربية العاتية . لقد
كان البحر فى هذا الممر هادئا ، وبعد هذه المعركة الحامسة
مع المرج الصاخب انزلت سفينتنا مرامار الى المدينة (ميناء
زانطة) .

لقد أصبح فى امكاننا الآن أن نلقى - بسرور - نظرة
على المشهد الجميل ، فالى الشرق ، وراء الساحل المستوى -
تقع أمام نواظرنا سلسلة الجبال اليونانية كلها . انها جبال
البيلوبونيز Peloponnosus ، بتراس Patras وأخيسا
Achaia ، واليس Elis ، وقد غطت الثلوج قممها
جميعا (٢٨) . والى الجنوب يقع سيفالونيا أجرد مكشوقا
Cephalonia (٢٩) ، أما زانطة فالى الغرب منا ، وكانت
هذه الجزيرة الجميلة - كغيرها من الجزر - مزدانة بجبال
صخرية ذوات تكوينات جميلة ، وان كانت سهولها خصبة
ملأى بالبساتين ، وتلالها تجللها الخضرة . أما جزيرة كورفو
Corfu فأكثر بهجة ، تعج بالزروع وتهفو النفس للاقامة بها
أكثر مما تهفو للاقامة بغيرها ، الا أن زانطة هى « ورده
الشرق » كما يقول الايطاليون .

لقد كانت مدينة زانطة تمتد معانقة الخليج بمنازلها
البيض ذوات الأسقف المسطحة وكنائسها الكثيرة ، وأبراجها

تقف شامخة بجوارها ، والتل بقلعته الصغيرة ، وكانت كلها
تنتشر بساحل أخضر سندسيا . انه منظر جميل ! "

لقد رست سفينتنا حالا في مواجهة المدينة (زانطة)
وكانت سفن أخرى عديدة قد فعلت ما فعلناه فلجأت للميناء
وهربا من العاصفة . لقد نزلنا للشاطئ بعد ان زارنا
الطبيب . ولم تدخل زيارتنا لزانطة من متعة فلها شخصيتها
الخاصة بها ، فذمة بقايا من ازدهار غابر ، اما الان مصيرها
بغير استثناء ضيقة جدا ، وكثير منها يصعد لها المراء بدرجات
(ساللم) ولا يمتن ان يمر بها الانسان الا سائرا على قدميه
(لا تسمح بسرور الراكبين) ، والغنازير تتمرغ في الساحات
الرئيسية (الميادين) ، وتعج المدينة بروائح تنه لا تطاق .
وكثير من منازلها ليس بها نوافذ زجاجية فليس ثمة
الا مغاليق تتأرجح في الهواء ، ولا حلية أخرى ، وان كانت
كثير من هذه المساكن ذوات طيرز معمارية قديمة وجميلة
تذكرنا بالقصور الايطالية ، أما الكنائس فزينة المدينة ،
بل هي الملمح الأساسي الجميل بها . انها أماكن العبادة
اليونانية ، التي تتبع المذهب الأورثوذكسي ومن الغرابة أن
تكون أبراج أجراسها على نسق أبراج كنائس القديس مرقس
Mark's ويلاحظ أن كهانها ذوو ثياب رثة . وكان هذا
اليوم هو يوم الاحتفال بذكرى أحد القديسين اليونانيين ،
وراح المؤمنون يقبلون الأوعية التي تحفظ فيها الذخائر
الدينية وكان شكل هذه الأوعية فظا خاليا من الذوق . لقد
حدث هذا في الكنيسة الكبرى .

ان التجوال في المدينة (زانطة) يعطى انطبعا مشوقا .
فاحدى الحقائق التي يكتشفها المتجول هي هذا الشبه الصارخ
بين المدن من الداخل في ثلاث ممالك أوروبية جنوبية .

ففي زانطة يمكنك أن تتصور نفسك في مدينة ايطالية
أو أسبانية خربة ، حيث يمكن رؤية كل جوانب الحياة في
الطرق . فأمام المقاهى العديدة يجلس الرجال بقبعاتهم

ذوات الحواف العريضة وقد لبسوا الشيلان من فماس مرسع
نفنته حول اختسافهم ، وقد لبسوا تيابا باييه ، وراحوا
يتارجحون بكسل على مقاعد قواعدها من قش وللواحد منها
ثلاث ارجل ، بينما فنجان القهوة موضوع امام الواحد منهم
على كرسى آخر وقد أمسك كل واحد بسيجار - تارجح حسون
وقنجان قهوة وسيجار ، وراحوا يثرثرون ويصيحون
ويغمزون - ان حياة الناس وعاداتهم هنا متشابهة الشبه كله
مع حياة الناس وعاداتهم في المدن الايطالية والاسبانية ،
فهنا تجد القهوة والسجائر التركية والاعلانات اليونانية
والكهنة بقبعاتهم المستديرة العالية ، وهناك تجد الشيوخولات
والسيجار الهافانى (من هافانا) ، ورجال الدين الكاتوليك
بقبعاتهم ذوات الزوايا الثلاث - لا بأس من هذا الاختلاف ،
فحقيقة الأمر أن الناس هنا وهناك متشابهون في عاداتهم
واساليب حياتهم - ويمكنك أن ترى وجوها جميلة صبوحة
بين الشابات ، أما العجائز من النساء فيالهول منظرهن ، إذ
لا يقدر على رؤيتهن الا أهل الجنوب الأوربي .

لقد صعدنا الى تل القلعة بعد أن مررنا بطرقات مختلفة
وبمنازل بأئسة ونحن نركب عربة (دروسكية) لا تليق
الا بمدينة ألمانية - لقد كان الطريق متعرجا منحدرًا بشدة
كما كان محفوفًا عن أيامننا وشمائلنا بسيجاج من نبات
الصبار وأشجار الفاكهة وبعض النخيل هنا وهناك .

ولا يستطيع أحد الوصول الى القمة فالطريق ينتهى
فجأة وتعوقه بعض أكوام من الحجارة - فكان يتحتم علينا أن
نكمل ما بقى من الطريق سيرا على الأقدام .

لقد كان التل غاصا بالجنود ، فهنا أيضا ، توجد كتيبة
سبق استدعاؤها ، وقد شرح لنا القائد - وهو رجل مثقف
عاش في باريس - بفرنسية سوية كل شيء ، فالقلعة مهدمة ،
لذا فقد جعلوا الجنود في حظائر مدرعة وفي الأكواخ .

لقد كان المنظر من القلعة يسترعى النظر ، قالى الشرق
— عبر القناة (الماصل المائى) يوجد الساحل اليونانى ،
والى الادنى — عند اقدامنا — توجد المدينة ، وعلى طول الجانب
الجنوبى للنل توجد حدائق زاهرة • وعند المنحدر الغربى
للنل توجد تربة طفلية وتكوينات طميية صفراء ذكرتنى
يشدة بجبال مورسيا Murcia فى اسبانيا • وتمتد على
طول الساحل الشرقى للجزيرة سلسلة من التلال المكسوة
بالاشجار بينما تلال الساحل الغربى جرداء قاحلة ، وبين
هاتين السلسلتين سهل عريض منخفض ، ويفصل هذا كله عن
طرف الجزيرة الشمالى شريط ضيق مستنقى يبدأ بالقرب
من المدينة ، أما طرف الجزيرة الجنوبى فقد زانه جبل
سكوبو Mount Shopo وهو كتلة صخرية مستقلة منفصلة عن
بقية السلسلة كلها •

وبدا أننا غير قادرين على اشباع رغبتنا بالتمتع فى
المنطقة الرائعة الكائنة أمامنا ، فتباين الجبال والتلال
التي تكسوها الخضرة ومدينة زانطة نفسها ومياه الفاصل
المائى (القناة) ذى الزرقة الهادئة ، والبحر العاصف فيما
وراء البرازخ ، كل ذلك شكل أمامنا خليطا متشابكا مؤثرا
جدا بحيث يصعب التأمل فى أى عنصر من عناصر المشهد على
حدة • وبدأ المنظر أكثر جلالا عندما تجمعت السحب
الداكنة الرعدية فوق الجبال • واشتدت الرياح ولمع البرق
ودوى الرعد وهطلت السماء بغزارة ، فجعلنا كل ذلك نعود
سراعا الى ميرامار •

وفى صباح اليوم التالى لم يكن الموج مناسبا للابحار
فقرر القبطان أن نقضى النهار — على الأقل — فى زانطة •
فقررنا أن نصعد جبل سكوبو • ومن رصيف الميناء استقللنا
عربة تجرها خيول صغير حجمها جدا ، فسارت بنا فى عدد من
الشوارع وتجاوزنا آخر منازل المدينة وسرنا على طول
الساحل — وسرعان ما انتهى الطريق الذى يمكن للعربة أن

تسير فيه فسرنا على الافدام بين حصول وحدائس بين اسبيجار
الزينون وعبر ممرات ماسيه جافه حتى وصلنا بسبح الدبيس *
وفسمننا فريق التسلق الى قسامين * وقد قمزت ميجاروا امر
المساحن التى يقطنها بشر (٢٤) ثم صعدت منحدرنا سديدا
تتمو عليه شجيرات كتيمة ، ومازلت اصعد حتى وجدت نسي
على بعض الالواح الحجرية وأكوام الدبش *

لقد كان تسلق الجبل شاقا ولا يبعث على الارتياح ، فقد
كانت الشمس تسفعنا بضراوة وكنا قد ارهقنا انفسنا -
دون مبرر - بحمل بنادقنا ، فقد كان صيد ذوات الأربع امرا
غير قائم أما الطيور فلم تكن كثيرة هنا خلا بعض طيور أوربا
الوسطى التى لجأت الى هنا طلبا للدفع فى الشتاء *

وفوق قمة الجبل يوجد معبد يونانى صغير بسيط وليس
فيه ما يثير والى جواره مسكن الكاهن وخادمه ، وكلاهما -
المعبد والمسكن - يتسلمان بالقذارة والاهمال ويكادان
يسقطان *

وبالقرب منهما مخروط صخرى ذو تكوين مميز ، ويبدو
هذا المخروط الصخرى على البعد جديرا بالرؤية ، فقد
استرعى انتباهنا عندما رأيناه ونحن فى البحر فى اليوم
السابق *

وكان علينا أن نتسلق هذا المخروط الصخرى باعتباره
أعلى نقطة فوق الجبل فزحفنا بشق الأنفس حتى وصلنا للقمة
ووضعنا هناك علما مكونا من منديل جيب وعصا *

لقد كان المنظر - على البعد - جميلا جدا ، لكننا لم
نمكث طويلا لنستمتع به ، لأن الاعصار البحرى أصابنا
بزخات مطر شديدة * ودعانا القس لبيته لتناول جسرعة
نبيند * وكان الرجل (القس) تبدو عليه سيماء الوقار بلحيته
الطويلة وشعره المنساب كشلال ، وقدم لنا بطريقة وده د

بعض البجين الرديء جدا المصنوع من حليب الماعز وخيزا
وبعضا من التبييد الجيد جدا مما تنتجه المنطقة ، لكنه شديد
المفعول مما ذكرنى بجرعات التبييد الشائعة فى اسبانيا .
وكانت الغرفة التى استقبلنا فيها تشبه تماما القوندا .
الاسبانية الصغيرة وقد غطيت أرضيتها بحصر مهترئة ، أما
المقاعد فمكسورة ، والجدران عارية ، وهواؤها ثقيل كئيب
رطب . وتؤكد صورة العذراء المسودة على الجدار الوطنية
اليونانية .

Ablackened Virgin on the Wall Vouched for the Greek nationality

وبعد أن تناولنا وجبتنا البسيطة استأذنا القس الكريم
وهبطنا الجبل . وتجاوزنا بعضا من مجموعات التخييل الجميلة
وبين الأدغال الكثيفة والزهور والينابيع ذوات البقبة كانت
توجد بقع كالتى يتنيلها المرء عند قراءته للميثولوجيسا
الاغريقية (الأساطير الاغريقية) اذ كانت مناسبة لرياضة
الآلهة المرحه .

ومرة أخرى عبرنا الحدائق لنصل للساحل ، وقضينا
فترة ما بعد الظهر والمساء فوق ظهر السفينة .

وقد أجبرتنا التقارير عن أحوال الجو غير الملائمة الى
قضاء يوم آخر فى زانطة فكان لابد من تدبير أمر نزهة
جديدة فبدأنا مبكرا فى صباح الخامس عشر من الشهر فى
الاتجاه الى طرف الجزيرة الشمالى ، فاتجهنا فى العربة
نفسها التى أوصلتنا فى اليوم السابق واخترقنا شوارع ثم
قطعنا طريق الجزيرة المبسوط بشكل جيد والمحفوظ
بالحدائق ، وبعد ذلك كان عن أيامنا سلسلة جبال خضر وعن
شمائلنا جبال جرداء وعرة ، ومررنا ببعض المنازل المنعزلة
وبقرى صغيرة . وقابلنا الفلاحون وهم يحملون نتاج حقولهم
الى المدينة (زانطة) وكان بعضهم يسير على الأقدام أما غالبهم
فكان يستخدم حميرا بأثس منظرها صغيرة الحجم ، أو عربات

للواحدة منها عجلتان • لقد تأملتهم جيدا ، فبدوا لى على نحو ما جنسا ضئيل الحجم داكن الجلد والشعر أما ازياءهم فاذ هى جذابة ولا مبهجة ولا ملائمة فسرأويلهم واسسعه وينتعلون أحذية تشبه الأخفاف (جمع خف بضم النام) الدماشية (٣٠) ، ويضعون على رءوسهم طواقى صغيرة أو قبعات عريضة أطرافها ، ويحمل كثيرون منهم بنادق للواحدة منها ماسورة واحدة •

وبعد ساعتين اقترب الطريق من الجبال فكانت عن أيامنا تنتهى الى بحيرة ضحلة ، بينما تتلأأ مياه الأدرىاتيكى الزرقاء على البعد •

وتتلاقى الجبال عن شمائلنا بالساحل بجدار صخرى عمودى وينتهى الطريق عند قرية مشيدة على مدرجات متحدر جانب الجبل • والجبال الشاهقة التى أصبحنا عندها الآن قاحلة تماما من هذا الجانب فلا أثر للخضرة فى جلاميدها وجروفها شديدة الانحدار ، وانطلقنا من القرية سيرا على الاقدام . حول قاعدة الجرف الشامخ الواقع بينها وبين البحر وسرعان ما وصلنا لطرف الجزيرة الشمالى • يا لروعة المنظر! لقد رأينا سيفالونيا Cephalonia الواقع صوب الشمال • وكان أمامنا مباشرة حوض واد ضيق تنمو فيه غابة بلوط فى وسطها دير تكاد تخفيه الأشجار يقع بين تلين • واتجهنا الى كنيسة الدير التى كانت تغص بالتحف والصور حيث المذاخر المذهبة (أوعية وصناديق لحفظ الآثار والمحفوظات الدينية) وصور القديسين السوداء • وبدا الموضع مكانا أثرا لدى الحجاج •

ودعانا بعض القسوس الودودين لتناول الغداء فى الدير ، وعندما استفسرت عن الصيد فى هذه الأنحاء اقترح الرجال الطيبون بلسان واحد أن نقتنص الأرائب البرية • وبعد أن انتهينا من تناول الطعام بدأنا رياضتنا بارشاد

اصفر القسس الذى ارتدى عباءة قصيرة وسروالا ازرق واسعا وخفا ، ووضع على راسه بيرتا biretta (فنتسـوـهـ مربعة يعتم بها بعض رجال الدين) (٢١) وحمل بندقيته طويلة ، وتبعه كلبان من سلالة غير عريقة وفلاح .

ورحنا نصعد لأكثر من ساعة فى وهاد كثيبة شديدة الانحدار ، فلا يرى المرء عن يمينه وشماله الا منحدرات ولا شئ غير حجارة ناعمة بيضاء تحير النظر لكثرة ما ينبعث منها من ضياء ، وكان يتخلل الصخور شريط ضيق من شجيرات ذوات خضرة داكنة وتركت الشمس بصماتها عليها كما هو الحال فى كثير من جبال المناطق الجنوبية فى دلماشيا واسبانيا .

وراحت الكلاب تتشمم حول الصخور وراح القسس يقفز بنشاط من صخرة لصخرة ، حاملا بندقيته المحشوة مستعدا لاطلاقها ، لكن شيئا مثيرا لم يحدث . وحامت بعض النسور الضئيلة عاليا فى الهواء .

وأخيرا وصلنا لقمة الجبل فتجلى أمامنا منظر البحر الجميل ، وكان فى امكاننا أن نرى على البعد منظرا شاملا للجبل بأحجاره وصخوره وقممه وأطرافه .

واسترحنا قرابة ربع الساعة ، وسمعنا طلقات متعددة تقذف من مكان قريب ، وسرعان ما ظهر بعض الفلاحين يحملون بنادقهم . لقد كانوا قد فقدوا أحد الأرانب البرية .

وفى طريق عودتنا ظللت متمسكا بالمواضع المرتفعة واتخذت أقصر الطرق للدير (أنف الذكر) وفجأة جرى أمامي أرنب برى صغير (ربما كان من نوع أرانب البحر المتوسط Lepus Mediterraneus) (٢٢) ، وكانت المسافة بيني وبينه بعيدة فلم أطلق عليه النار ، لكن القسس والكلاب اندفعوا يشبون وراء الحيوان النبيل ومن الطبيعى أن يكون

الأرنب هو الأسرع فاخترني في الحال ، ويلعب الأرنب البرى دورا مهما فى زانطة - تنحرا لندرتة الشديدة ، رعان اسر الباسئ بعد مطاردته الفاشلة يلهث ويتمنم ويخبط باليونانية .

ولما وصلنا للدير اسرعنا الى عرباتنا فقد انتفضى من حسبه النهار بوقت طسويل ، وسرنا بالعربات طويلا وكان سندا جميلا ، لكننا كنا نشعر بالبرد وحل المساء قبل ان نصل الى مرامار وبدت لنا زانطة جميلة الجمال كله وهى تسبح فى ضوء القمر ، وغادرتها فى الصباح بعد ان وصلت تسارير تفيد أن حالة الجو تسمح لنا باستكمال رحلتنا .

كان صباح السادس عشر من الشهر طيب المناخ ، وكان البحر يبدو كصفحة زجاجية ، لقد تحركنا بالفعل فى الساعة الرابعة صباحا وتمعنا العيون بمناظر لطيفة وذكرتنى جبال أركاديا Arcadia ومسينيا Messenia التى يجلها الجليد بجبال الساحل الاسبانى الشمالى (٣٣) - لقد كان مثيرا ذلك التناقض اللونى بين زرقة السماء العميقة وبياض القمر الثلجية ، وكلما أوغلنا للجنوب أصبحت الألوان فاتحة وقلت الجبال الصخرية ، وأصبحنا نرى تلالا متدرجة الصفرة كجبال شبه جزيرة أيبيريا القاحلة .

وتجاوزنا نافارينو Navarino وبعد ذلك رأينا رأس ماتابان Matapan ذات التماريج ، ثم تتابعت الجزيرتان الصخريتان أريجو Arigo وأريجيتو Arigetto ، وبعد الظهر ظهر لنا فى الأفق جبل كنديا Candia (٣٤) ، وفى المساء مررنا بالطرف الغربى لهذه الجزيرة الجميلة الكبيرة ، وفى ضوء القمر رأينا شكلا ضبابيا لجبال كريت . وقضينا ساعات بهيجة فوق السفينة نستمتع بقمر الجنوب المتألق وهو يلقي بضياءه على موج البحر .

وفى اليوم التالى كان الجو هادئا وجميلا ايضا فاستمتعنا
بهواء البحر العذب ، وفى الصبح الباكر كنا لازلنا نرى
سديا Canua ، وكنا نرى جبل ايدا Ida المدهش زخيره
من الجبال العاليه فى الجزيرة معطاة بطبقات خفيفه من
الجليد . وعند الظهر احسنا باقترابنا من افريقيا وسعدنا
للمرة الاولى بالدفء القادم . " هم هو مبهيح ان تستلقى فوق
ظهر السفينه مستمتعا بدفء شمس الجنوب ، وان تهر فى
البرودة التى خلفناها وراءنا فى وسط اوربا منذ ايام قاذل .
وتجاوزنا احدى بواخر لويدي Lloyd's Steamers ، وفيما عدا
ذلك فقد كان كل شئ ساكنا فوق صفحة الماء الممتدة .

واستيقظنا فى الثامن عشر من فبراير لنستمتع بجو
رائع وكان اول ما يادر به بعضنا بعضا هذا السؤال : ألم
يظهر البحر الاقريقى بعد ؟ . لا شئ أمامنا سوى الماء على
امتداد البصر . وفى الساعة الثامنة صباحا ظهر لنا الساحل
الاقريقى شيئا فشيئا وبدت - فى الأفق - بعض مآذن
الاسكندرية ، فعياها كل المسافرين معنا بالصباح والتهليل .

تلك هى المرة الثانية التى تتساح لى فيها رؤية قارة
أفريقيا ، أما المرة الأولى فقد أعجبت فيها بالسواحل الصخرية
لمنطقة أطلس Atlas region ، أما الآن فقد كنت سميدا
فرحا عندما رأيت الساحل المستوى لمصر المقدسة Sacred
Egypt (٣٥) .

الفصل الثانى

الوصول لالاسكندرية - يوم لى الاسكندرية -
مسيحيو الشرق الادنى لى مصر - اردحام احياء
الاسكندرية - الشبه بين العرب واليهود - القى
الأوربي - الجنس المخلط - اهل الاسكندرية -
المحطة الجنوينة - الرملة - ترعة المعمسودية -
جنيانة النزهة - لا وجود للعاهرات - الثرى
اليونانى - اكوام القمامة - عمود بمباى -
الندابون المستأجرون - خط القطار - سسبغات
شمال الدلتا - البدو يعبرون الأراضى الزراعية
بجمالهم - دمنهور - كفر الزيات - طنطا - الالهة
بياستيس - مولد أحمد البسدى بطنطا يعنى
بالفجور - بنها العسل - حديث عن مقتل عباس
باشا حلمى بقصره فى بنها - الوصول للقاهرة -
شبرا - قلعة قصر النزهة - الحى العربى بالقاهرة
- قصر طوسون - مزارع القصب - الخسول
والكرباج - خوف الفلاح من الملابس الرسمية -
حى القاهرة القديمة - مسجد قصر العين - زيارة
كنيسة قبطية - قبط مصر ينتمون للعرق نفسه
الذى ينتمى اليه المصريون الآخرون - القبطيات
محجبات - الأزهر كمركز لتفسيرى التعصب
والرد على ذلك - الموسيقى - الغش اليهودى والعربى
- الأهرام - الأزبكية - الصيد فى هليوبولس -
المحجر - رسوم الفنان المصاحب للرحلة - تعليقات
المترجم *

يبدو الساحل المصرى للرأى كموجات من تلال رملية، ترتفع هنا وهناك على شكل كثنان صفراء شكلتها الرياح (١) .

وأول ما يصادح النظر بعض المآذن المسماة ، ثم المنارة ، وبعض الطواحين الهوائية خارج المدينة . وسرعان ما ارتفع أمامنا قصر مصطفى باشا ودانما انبتق من بين الأمواج ، وكان القصر ذا طابع شرقى خيالى ، وهو متخصص لنائب الخديو (٢) .

والآن ، أصبح وصولنا للاسكندرية حقيقى واقعة ، فاتجه أحد القوارب نحو سفينتنا بعد ان رفع مرندنا العلم ، ليعتد للقارب هدفه . وقام هؤلاء الشرقيون - وهم ليسوا عربا خلصا - فالعاملون فى صناعة البحر ، سم سماعات من اجناس مخلطة - قاموا بالتجديف بقوة ونشاط ، حتى وصاروا بالقارب اليها . وكان هؤلاء البحارة ذوى جلود سمراء مصفرة ، ويلبسون ملابس كالتى يلبسها أهل آسيا الصغرى ، وعلى رؤوسهم عمام ، وكانوا يصيحون ويومنون لنا كلما اقتربوا منا . وكان يجلس بينهم رجل داكن البشرة يرتدى لباسا شرقيا جميلا ، وقد لف حول رأسه غترة (لفاع أو وشاح) ، وكان له لحية جمعدة سوداء ، أعطت انطباعا واضحا بأنه عربى . وكانت يداه السمراوان مزدانتين بحلقات من فضة (يقصد الخواتم غالبا) (٣) .

لقد هدأنا من سرعتنا وتسلق المرشد السلم بهدوء ووقار وبعد ان تبادلنا التحية ، جلس فى مكانه عند عجلة التوجيه ، وتم ربط قاربه بالعبال بسفينتنا . وتقدمنا نحو قناة حجرية ضيقة تصل للميناء القديم .

وجذبت انتباهنا قلعة سعيد باشا الملك (٤) Said Pasha el-Mek ، وكانت تقع عن أيامنا ، بعمارتها التى تدعو للتأمل ، ورأينا عدة مدافع وبعض بساتين نخيل ولما درنا حول حائل الأمواج دخلنا الميناء ، فتجلى لنا منظر مدينة الاسكندرية البهى .

والولا الماذن وبعض المباني الضخمة ذات الطراز العربى ،
لظن المسير فمستطرا اراء بعض مواسى و اروپا الجنسويين -
فلم سندنريه بان تنك - منظر المدن الاوربية اذا نظرنا اليها
من الخارج *

لقد تجلى لنا المشهد الفريد ونحن نسير حاذي الامواج
(جدار لحماية المرفأ من شدة الامواج) فانطلقت المدافع
تحية لنا ، وحيثنا السفن الحربية التركية : السفينة محمد
على ، والسفينة المحروسة Makkarosa ريخت الخديو
وقام البحارة باعداد الصواري ، وكانوا يرتدون زيا له
طابع عسكري على نحو ما ، كما كانوا يضعون الطرابيش
فوق رؤوسهم * وهبت علينا روح الشرق القديمة الجميلة
ممثلة في العزف السلطاني (السلام السلطاني التركي)
الذي يجعلنا نتذكر بشكل ما السلام القيصري المجري ، بينما
كنا نستمع لموسيقى الخديو (المعزوفة الموسيقية المميزة
لخديو مصر) تعزف في ليخت *

وكان طاقم السفينة النمساوية لويدي Lloyd يرتدون
ملابس ملونة ذوات طابع احتفالي * وكان الميناء غاصا
بالسفن ، واصطف لتحيتنا عليّة القوم في الامبراطورية
التركية . كانوا بيضا كفوالق الأقمار على بسط حمراء بلون
الدم *

واحتشدت على امتداد الماء قوارب ملأى بالعرب من كل
الطبقات : فمنهم الغنى ومنهم الفقير لكنهم كانوا يلبسون
ملابس فاخرة لها طابع خاص * انها في حاجة لريشة فنان ،
ورأينا كثيرا من أهل المدن ، من الشرق الأدنى (٤) Levantines
واليونانيين والايطاليين واليهود ، وكان منهم من يضع على
رأسه طربوشا بينما كان آخرون بغير طرابيش *

وقدم الينا أعضاء الجالية النمساوية المجرية (٥) في
لنشات بخارية مزدانة بشكل بهيج ، وعزف فريقهم الموسيقي

موسيقا : « يحفظ الله الامبراطور » (٦) ولوح لنا اهل
دالماتيا Dalmatians بزيهم الأخضر والأبيض الذى
يرتديه اهل وديان بوشى دى كاترو Bocchi di Cattaro
وقد لنوا الشرائط الرابطة لأسلحتهم حول أجسادهم النحيلة .
وقد بدا مسيحيو الشرق الأدنى هؤلاء ، فى زيهم متناقضين
— بشكل صارخ — مع المسلمين ذوى الملابس الشرقية زاهية
الألوان . ولا يمكن مقارنة هذا الخليط الهائل من الأعلام
والألوان والأزياء التى كانت تحيط بنا فى هذه القوارب
ذوات العدد الا بالمشكال الزجاجى الذى يبعث مالا حصر له
من الألوان عند تعرضه للضوء . وبعد أن وصلنا أخيرا الى
عوامة ارشاد السفن راح الناس يلوحون — بشكل فضولى —
حول سفينتنا .

وسرعان ما قدم البارون شيفر Baron Schaffer القنصل
العام ومعه أعضاء القنصلية النمساوية ، وبعد أن تلقينا
التحية منهم كان علينا أن نستقبل أصحاب المقام الرفيع من
اهل البلاد الذين قدموا الينا فى بوارج الاحتفالات
(الاستقبالات) وكان على رأسهم مصطفى باشا Mustapha Pasha
وزير الخارجية (٧) ، مبعوثا من سيده فى القاهرة
لاستقبالنا ، وتبعهم عدد من الجنرالات ورئيس الميناء ، كما
حضر عبد القادر باشا فى لباس جنرال مصرى (رئيس فرقة)
Egyptian General of Division . لقد كان الخديو موقفا فى
تعيين هذا الرجل المقبول المتحضر المخلط ، فنصفه تركى
ونصفه عربى — ليشراف على أمورنا أثناء رحلتنا لمصر . لقد
تعلمنا فردا فردا كيف نقدره ونعترمه وكنا نفارقه يوميا
— بعد طول تجوال — أسفين لفراقه . وبمجرد أن ينسحب
المصريون ذوى المكانة ، يأتى الينا المقيمون النمساويون .

ومن الملاحظ أن عددا كبيرا من النمساويين من مختلف
أنحاء المملكة موجودون هنسا ، بالاضافة الى عديد من

الندماشييين Dalmatians لهم دور كبير فى بيوت المالك
الخبير ، وعلى ايه حال فان غالبية النمساويين هنا ليسوا
نمساويين بالمولد - انهم من اهل الشرق الادنى Levantines
بمختلف جنسياته ، اتوا الى هنا بحثا عن التجارة الامنه ،
وفوق كل ذلك ليقدّموا الشكر لنشاط سفينتنا لويد الذى
حقق شهرة رائعه ، رغم أن هذا النشاط لا يقدر بما فيه
الكفاية فى الوطن (النمسا) ، وقد وضع هؤلاء الشرقيون
Levantine أنفسهم تحت حماية بلدنا ، (حصلوا على
الحماية النمساوية) (٨) .

وبعد أن تناقشنا لبعض الوقت مع افراد مختلفين منهم
وجدنا أن بعضهم كان من مواطنينا (نمساويا) بالميلاد ،
أما الآخرون فكانوا نمساويين بالاسم فقط - عدنا الى
كبانينا بعد أن غادروا السفينة ميرامار ، وغرنا ملابسنا
الرسمية وأرتدينا أخرى مدنية - وسرعان ما نزلنا جميعا على
سلاّم الميناء حيث كان فى استقبالنا البارون شيفر Schaner
ودلفنا الى مركبات كانت فى انتظارنا ، وتزاحم حولنا
الحمالون (مفردهم حمال Hammal) ويسمون أيضا
الشيالين (مفردهم شيال Scheyyal) وهم طائفة من
أفقر العرب لهم أذرع عارية وسيقان بنية نحيلة قوية ،
وقمصانهم زرق ويربطون خواصرهم بأحزمة محكمة ،
وموظفو الجمارك الذين يلبسون اللباس الأوربي ، والباعة
الأتراك وعمال الرصيف ، وكان منظر كثيرين منهم ملفتا
للنظر - لقد أحاط بنا الجميع وراحوا يحملقون فينا
بنفضول .

لقد أحسن الخديو صنعا بوضعه بعض حافلاته فى
خدمتنا - لقد كانت الحافلات ، وكذلك الخيول انجليزية ،
أما الخدم فكانوا - بدون استثناء - فرنسيين ، وكان زيهم
أوربيا تماما ليس فيه من الشرق الا الطربوش - أما خارج

المركبات فكان هناك من يجرون دائما أمامها وهم يصنعون
ويسميحون بلا كلل ولا ملل ، وكانوا يلبسون ملابس غريبة
بأكمام واسعة بيضاء وفي أيديهم مراوات طويلة ، وكانوا
نحال البنية وإقدامهم رشيقة .

ولم نعرف فائدة هؤلاء المعينين للجري أمام حاملاتنا
الا عندما مررنا بالأحياء العربية الضيقة في الاسكندرية ،
فيدون هؤلاء كان سيتمذر مرورنا الا بصعوبة بين هذا
الحشد من البشر والبهايم ، بل وكنا سنضطر للتوقف كثيرا .

وبمجرد معادرتنا للمناطق المحيطة بالميناء ظهرت امامنا
الحياة الشرقية بكل ابعادها . الشوارع الضيقة التي تحفها
منار على الطراز العربي ، ملاي بحشود البشر من كل لون :
فالحمارون يصيحون ، والسفهاء الذين لا غنى عنهم ،
والبائعون الذين يبيعون بضائع مختلفة ، والفلاحون ذوو
الجلابيب الزرق . يطوحون ببرانسمهم (المفرد برنس)
البیضاء الزاهية Pure White burnous ، والنسوة
اللاثى فى ملايسهن طيات تدل على الثراء ، وقد وضعن فوق
رءوسهن زينات ذات طابع قديم وكأنها أوراق نبات ابريقى
الأوراق antique pitchers (٩) والمتسولون المصابون
بالعمى بعصيتهم الطويلة ، وأولاد صغار كالقنابد وصنخب
وضجة وشغب لا يمكن أن توجد الا فى الشرق ، وقد دهشنا
غاية الدهشة من الأتراك وأبناء آسيا الصغرى بسبب ملابسهم
الزاهية ألوانها . لقد كانوا مختلفين تماما حتى فى طريقة
التعبير عن العرب ، وكانت جلودهم أرق وأقل دكنسة .
فالعربى الحقيقى داكن اللون وله ملامح جميلة ونبيلة وشكله
رقيق لكنه مضغم رجولة . والعربى ، وان كان أرقى من اليهودى
Israelite بكل المقاييس ، الا أنه يشبهه بشكل واضح
لا تخطئه العين (١٠) . والفلاحون الذين يزرعون التلال
ليسوا غزبا خلصا ، انهم أقرب شبيها بالمصريين القدماء ،

وأظن أنهم السكان الأصليون لمصر وسأتناول هذا الموضوع
بتفصيل أكثر في موضع آخر (١١) .

وبعد أن عبرنا هذه الشوارع الشرقية وصلنا الى الجانب
الأوربي من المدينة (الاسكندرية) ، حيث الشوارع العريضة
والمنازل الجميلة على النراز الأوربي والمباني الواسعة وبدأ
أن ساحه محمد على هي مركز الحى وأكثر الموضع بهاء .
ولا ابد ضرورة لوصف ملامح الأوربيين من سكان الموانئ
(موانئ البحر المتوسط) .

وللاسكندرية هذه الشخصية تماما فرغم انتظام شوارعها
وجمالها . الا أن شيئا ما عالق بها يعد غريبا بالنسبة لنا .
فالقذارة الشرقية والقوضى (الالهال) التى لفتت النظر
للمدن العربية لا تنفى انها - أن هذه المدن - تحذو حذو
العمارة الغربية وتحاكيها محاكاة كاملة ، فأنت تحس فى
كل خدوة تخطوها بوجود الغريب الذى يسعى لوضع اثره
على العالم الأجنبى . وتغطى الرمال القسامة من الصحراء
المدن الأوربية (يقصد المدن الشرقية ذات الطابع
الأوربي) (١٢) وتجمل وجوه الأجانب الطامعين فى الكسب
- شاحبة .

لقد وصلنا لساحة محمد على بعد أن مررنا ببعض
الشوارع الرئيسية ، وفى وسط الساحة (الميدان) يقبع
تمثال المقاتل العظيم محمد على على صهوة جواد ، ومحمد
على هو الابن المغامر والناجح لأحد الحراس المقدونيين من
قولة kawala ولم يكن اهتمام محمد على البالغ بمدينة
الاسكندرية عبثا أو بلا هدف ، فقد يقارنه العالم بالاسكندر
الأكبر . ان كان - أى محمد على - قد نجح فى تطويرها فى
مختلف المجالات .

ويجد المسافر نفسه في الاسكندرية فوق أرض تاريخية
لكن هذه المدينة لن تستعيد مرة أخرى عظمة وبهاء ، كالعظمة
والبهاء التي كانت عليهما أيام مكتبة الاسكندرية العظيمة ،
عندما كانت مركزا للفن والأدب ومختلف العلوم .

ان الشوارع الأوربية مفعمة بالحياة والنشاط (يقصد
الشوارع ذات الطابع الأوربي بالاسكندرية) (١٢) فالناس
لهم منظر الجنس المحلل - بشكل واضح يفوق الوصف -
بحيث يمكن وصفهم بأنهم من الشرق الأدنى (١٤) Levantine
ان ملامحهم خليط من ملامح الايطاليين واليونانيين والارمن
والأتراك - وكلهم يلبسون اللباس الأوربي ، الا انهم
- بشكل عام - يضعون فوق رؤوسهم الطرابيش - وبالإضافة
لذلك فقد رأيت أزياء دلماشية Dalmatian وألبانية
بالإضافة للأزياء التركية وأزياء آسيا الصغرى Turkish, and
the e of Asia Minor

والرهبان اليونانيون هنا كثيرون كما رأيت بعض
الفرنسيين ، ويظهر الحمارون (بتشديد الميم) والحمالون
والسقاءون في الشوارع الأوربية (بالاسكندرية) وان كان
العدد الأكبر منهم يوجد في شوارع الحي العربي . ويقف
بجانبهم والنوبيون أمام بيوت البنيانيين الأثرياء لمجرد
التباهي والمظهرية دون أن يقوموا بعمل محدد .

لقد عدنا أدراجنا الى الحي العربي بعد أن أصابنا
الازعاج من الشوارع المستقيمة . لقد وصلنا الى الحياة
الشرقية الصميمة ، بدخولنا بعض الحواري الضيقة المشيدة
على النمط الشرقي حيث للمنازل مشربيات مخصصة للنساء ،
وهذه المشربيات عبارة عن نوافذ مغطاة بخشب شعري
مقصب (١٥) . لقد أصبحت حافلتنا تسير أبطأ فأبطأ حتى
اضطررنا أخيرا لتركها وسرنا على أقدامنا في السوق .

ولا يمكن للاسكندرية أن تزعم انها على شاكلة مدينة عربية ، فعنتى سوقها الصغيرة التافهة بكل ما فيها من حياة وحركة تعطى انطبعا مفرطا للأوربي الذى وصل اليها لتوه قادما من الغرب دون أن يكون له المام بأحوال الشرق .

ان المرء يجد فى الاسكندرية حشودا من المشاهدين التافهين والباطمين والمشتريين والأطفال المتشردين والكلاب والحمارين الطائشين ، والأزياء الغريبة ومختلف انواع الأجناس ، ومع هذا فان هذا التباين الشديد الموجود بالاسكندرية يجد المرء أكثر منه بكثير فى القاهرة . لذا فاننى سأبذل قصارى جهدى لوصف الحى العربى والسوق الذائعة الصيت لعاصمة الخلفاء القديمة . لكن الالمام بمعلومات كاملة عن الحياة الشرقية يستلزم دراسة خاصة .

لقد اتخذنا طريقنا ببغلاء وصعوبة فى السوق ، وعند الطرف الآخر للسوق كانت الحافلة فى انتظارنا ، فاوصلتنا الى المحطة الجنوبية . لقد كانت الترتيبات والحافلات تذكرنا بانجلترا فى كل شىء فيما عدا بعض الاهمال .

لقد سار بنا القطار على طول كثبان رملية كانت تفصل البهائم عن البحر - الرملة Ramleh وهى المنسجج الصيفى لأثرياء مصر وموضع سياحتهم ، ويرى المرء هنا وهناك - خاصة بالقرب من الاسكندرية كثباننا من رمال الصحراء الصاعدة ، وتناثرت على طول هذه الكثبان خيام الفجر والبدو ، وجمال واهنة وحمير ناهقة ، وأكواخ أقامها العرب ، وقبور كثيبة ، الا أن معظم هذه الكثبان قد تحول الى حدائق وأقيمت عليها الفيلات الباسمة .

لقد أثرت أشجار الليمون والبرتقال الى جانب النخيل المسافات فينبات المكان كله يبدو كمتنزه . وعند الوصول

للمرملة Ramleh لم تنتظر أكثر من عشر دقائق حتى
وصل القطار التالى ليعود بنا للاسكندرية • لقد اظهرت هذه
الرحلة القصيره للغريب كيف ان الجهد البشرى يمكن ان
يحول أكثر الاراضى قفرا الى فردوس • واتساءل عودتنا
للاسكندرية كان القطار يسير بنا على طول ترعة الممسودية
Mabmudiyé canal ، الى الحديقة العامة الكبيرة المسماة
جنيانة النزهة Ginènet-en-Nasha • وكان المنظر على
طول ترعة المحمودية مسليا •

لقد كان الطريق بهيجا فقد رأينا عليه القوم فى
الاسكندرية فى حافلاتهم التى تجرها الخيول (حناطيرهم)
متجهين الى الحدائق الفناء حيث كانت تهب نسائم المساء
المنعشة ، كما رأينا الرجال والنساء من أكثر الطبقات فقرا ،
وهم يتوضأون بمياه ترعة المحمودية ويؤدون صلواتهم على
ضفتى الترعة وقد ولوا وجوههم صوب مكة (المكرمة) •

ويرى المرء بين البعض ممن يلبسون ثيابا راقية ،
شيئا من سقم الذوق فى طريقة اللباس ، ومع هذا فالوجوه
جميلة جمالا لا يمكن انكاره • ولا توجد اشارة ، بل أدنى
اشارة لوجود طبقة المومسات أو نساء المتعة التى نعرفها فى
فيينا أو بين Pesth ، وغالب المومسات فى مصر - كما قيل
لى - أتين من النمسا • وحديقة « جنيانة النزهة » ذات بهاء
وفخامة ، ولها الطابع المدارى لحدائق مصر فرواتح البهار
تملأ الهواء ، والزهور المتفتحة اليانعة تسرع عيون الأجانب ،
وراحت الفرق العسكرية تعزف أجمل الألحان ، وراح عديد
من الأوربيين يسرون فى الممرات الظليلة •

وقد زرنا أجمل بيوت الحى - انها فيلا الثرى اليونانى
أنتونياديس Antoniadis • لقد كانت للفيلا حديقة
يحيط بها سور متين ، ووجد سخاء المناخ الأفريقى بين الفن

والطبيعة فى ثوب واحد قشيب ، وكانت الفيلا نفسها جميلة منسقة ، وبذل بانيها قصارى جهده ليكون جوها من الداخل باردا ، وقد سمح مالكها لنا تفضلا منه بزيارتها .

وعدنا مرة أخرى للاسكندرية عبر طريق مخضوف بالشجر على التربة ، ثم انصرفنا الى أرض بها عمود بمبى Pompey الشهير وهو يقع خارج الاسكندرية .

وقد جذب انتباهى الطريق الذى سلكناه ، فقد وجدت فيه ما يذكرنى بمناظر فى وطنى * والأحياء المجاورة لمدن الشرق وكذلك تلك الموجودة فى شرق أوروبا ، لها الطابع نفسه . فالمنازل والأحياء تصبح أصغر ، ويبدو الإهمال وتظهر اكوام القمامة وينقلب كيان المباني * وتبدو المقابر المنعزلة .

وهنا يبدو طابع المكان أكثر تحديدا ووضوحا ، حيث المقابر الخربة وهذه المباني الصغيرة الدائرية ذات الشباب وأشجار النخيل المتناثرة وقد قل عددها ، والجمال المعطلة فى حالة استرخاء ، والكلاب التى تكاد تكون متوحشة والجواميس والحمر ، وقد انتشرت الأتربة الصفراء فى كل مكان .

وفى وسط المساكن الكائنة فى طرف المدينة يوجد تل دائرى من صنع الإنسان ، لا بفعل الطبيعة ، وفوق هذا التل ينتصب عمود بمبى الأثرى ، وهو قطعة حجرية واحدة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وستين قدما ، وفى منتهاه (طرفه العلوى) صخر نارى أسوانى Syenite فوقه تاج كورنثى الطراز Corinthian ، وكان هذا التاج فى الأزمنة القديمة يحصل تمثال دقلديانوس Diocletian (١٧) .

وأنت اللحظة الأخيرة فصعدنا هذا التل الصخرى (الى جوار العمود) وتمعنا النظر ، فقد كانت الاسكندرية تمتد

أمامنا وقد لبست غلالة من ضوء ذهبي ، ويمتد البحر الى شمالها وتمتد الكشبان الرملية وبحيرة مريوط الى جنوبها الشرقي .

كانت الشمس تغرب وظهر قرصها واهتنا بين الهواء المعيا بالأتربة والسخونة ، فبدت خجلى واهنة ، كالشمس في أيام بلادنا الضبابية . وكانت السماء - من ناحية الغرب - مزدانة بالوان خصبة وثرية ، يرتقلى واحمر وازرق وكل لون منها واضح وغير متداخل مع الالوان الأخرى ، وكلها جميعا - اى هذه الالوان - تسبح في نور ذهبي ، أما من جهة الشرق فقد كانت السماء قد تدهرت بظلال زرقاء ، وظهرت مقدمات المساء ، وكان يمكن رؤية نجوم متألقة هنا وهناك فالشرق وحده - ومصر خاصة - مشهور بأضوائه وظلاله التي تترك في النفس فعلا كفعل السحر .

وبينما كنا في قمة السعادة فوق التل لروعة المشهد أمامنا سمعنا صوت ضجة ورأينا زحاما عند قاعدة التل . ففى البداية أتت قطعان من الماعز بأذاتها المائلة ، ثم صفوف من الجمال . لقد كانت - الماعز والجمال - فى الطريق الى زرائبها وبصحبتها رعاتها يصيحون فيها . وبعد ذلك رأينا جنازة حيث الناس يسرون خلف تابوت خشبي بدون غطاء سوى قطعة قماش مطروحة عليه ، وفى مقدمة التابوت عمامة منحوتة من الخشب تنبئ أن الرجل فى طريقه لمثواه الأخير ، وقد أحاط بالتابوت بعض النسدا بين المستأجرين (١٨) hired mourners ، راحوا يعصرون أيديهم اظهارة للألم كما راحوا يولولون بصوت عال . ووراء التابوت قوم يتلون الدعوات ويمشون ببطء . لقد كان منظرا غير عادى .

وقمنا بجولة ثم عدنا للاسكندرية من خلال باب محرم بك الذى كان يمثل تحصينا للمدينة فيما مضى ، أما الآن فليست له أية قيمة تحصينية .

وفى ساعات المساء تزداد الحركة فى الشوارع عنها فى ساعات النهار ، وتزداد الضوضاء ويعنو الصياح ولا يذهب الصراخ . ان هذا يتناقض مع طبيعة الليل الذى يجب ان يتسم بالسكون وفى الليل تبقى المحلات مضاءة والمقاهى مفتوحة . وأسماء المحلات والمقاهى فى الحى الاوربى بالاسكندرية مكتوبة اما باليونانية أو الفرنسية أو الايطالية .

لقد وصلنا لسفينتنا ميرامار بينما قد أرخى الليل سدوله وأقبل البارون ساورما Baron Saurma القنصل الألمانى العام لتناول العشاء ، وقد لزمنا هذا الرجل وانضم لمجموعتنا وقد كان مفيدا لنا فى كثير من الحالات خاصة فيما يتعلق بأمور الصيد .

لقد غادرنا ميرامار فى بكور اليوم التاسع عشر وودعناها فلن نعود اليها بعد وقت قصير . لقد أوصلتنا بارجة احتفالية مصرية خاصة بنائب السلطان (الخديو) Viceroy الى البر ، وكانت هذه البارجة مزينة ومعدة على نمط شرقى ، فكل شئ فيها كان أحمر اللون ، فملابس البحارة لم تكن تقل حمرة عن أغطية المقاعد ، وكانت الأركان مغطاة بجوخ أحمر ، كما كانت المظلات التى نستظل بها حمراء . والبحارة الشرقيون يجذفون بهدوء - على النقيض من البحارة الأوربيين ، وان كنا لا ننكر أن التنسيق فى التجديف مصحوبا بأغنية هادئة غريبة قد ترك فىنا تأثيرا يدعو للسرور .

لقد انطلقنا من الميناء للمحطة حيث كان هناك زحام شديد من النمساويين ومن المناطق التابعة لنا وعزفت الموسيقى « يحفظ الله الامبراطور » ولوح أبناء دلماشيا بقبعاتهم تحية لنا ، بينما كانوا يرتدون زيهم الوطنى المتسم بالثراء والجمال . وفى غضون دقائق قليلة كنا قد غادرنا المحطة . لقد وضع نائب السلطان (الخديو)

قطاره الخاص فى خدمتنا بما فى ذلك العربات الواسعة الخاصة به ، وكان فى القطار حافلة (عربية) مكشوفة فى الوسط . وثمة ممرات جيدة تمكن المرء من الانتقال من أقصى القطار الى أدناه .

لقد كان فى القطار بالاضافة لمجموعتنا (التى قدمت من النمسا) البارون شيفر Schaffer وأعضاء المنصليّة النمساوية والبارون ساورما Saurma ، وعبد القادر باشا مسئول الشؤون الخارجية المصرية ، ومصطفى باشا وبعض المصريين ومسؤولو ادارة السكك الحديدية وعلى رأسهم م . زمرمان Zimmerman وهو رجل فرنسى متحضر ، ويهتفى بقبول كبير وقد شملنا برقة غير محدودة .

لقد كان القطار سريعا ، لذا فقد كنا - بشق الأنفس - نستطيع أن نلقى نظرة على المناطق الجديدة بالرؤية ، بسبب سرعة القطار . لقد كان طريق القطار فى البداية على طول حافة تفصل بين بحيرات مريوط السبخة عن إيماننا ، ومياه أبى قير عن شمائلنا ، فالمساحات العريضة لهذه المسطحات المائية كانت مغطاة بطيور الماء من مختلف الأنواع ، وعلى الشواطئ الرملية كانت طيور البلشون (يفتح الباع واللام) السوداء (أو مالك الحزين) يرقابها الممتدة .

وبعد برهة تركنا خلفنا مياه شمال الدلتا وسبخاتها (١٩) لننعم النظر بالأراضى الخصبة كثيفة الزروع ، فى كل مكان ترى الحرث وحقول القمح الواسعة وغابات من أشجار القطن ، وقنوات عميقة وجسورا عالية وتناثرت النخيل هنا وهناك ، وكذلك البساتين الكثيفة dusty ، والقرى ذات المباني الطينية وقد سمقت فى سمائها المآذن . هذه هى السمات العامة لمصر الدنيا (الدلتا) .

ويرى المرء حياة نشطة على الجسور - التي تستخدم أيضا لسرق - وكذلك فى الحمول فتمه فلاحون يحرقون ، وآخرون - نصف عراة - مشغولون عند السواقي والنسوة بجلايينهن الزرق يسرن الى جوار قوافل الجمال الفخورة (المعنزة بنفسها) وقد أمسكن بأيديهن أطفالهن العراة . وتعتبر الأسر البدوية الأراضي المزروعة وهم فى طريقهم من صحراء لأخرى سواء سائرين على أقدامهم أم يمتطون خيولا ، أما البدويات فتركبن جمالا . ان هؤلاء البدو ذوو أحجام ضئيلة ، ومع هذا فهم معتزون بأنفسهم ونزاعون للاستقلال .

نقد راينا العرب الخالص والبرانس (العباءات) البيضاء والخيول البهيمية والبنادق الطويلة ، والسيوف المعقوفة ، والعمائم ، وطواقى الفلاحين البسيطة والماعز طويلة الوبر والحلاب الشبيهة بالذئب وحمير الفلاحين السوداء المصفرة التى اعتراها الهزال ، جنباً الى جنب مع البغال والحمير البيض والسود التى تبدو عليها آثار النعمة والعلف الجيد والتى أعدها أصحابها الأثرياء للركوب ، ومواكب عربات الأثرياء والرجال ذوى العباءات المزركشة على صهوات الخيل والنساء يركبن الجمال فى هودج (جمع هودج) ليديراً عنهن نظرات المتطفلين ، وجماعات طيور النورس (زمج الماء) تتبع الفلاحين وهم يحرقون ، وطائر أبو طيط الرشيق . وبين أشجار الحقول على شاطئ النهر تهدل حمائم النخيل الحمراء (؟) وزمج الماء (٢٠) ذو المنقار الطويل ينقض صائدا السمك - انه أكثر الطيور المصرية أصالة (انه طائر مصرى أصيل) . ويرى المرء من القطار الذئب وهى تعدو فى الحقول ، والحدعات تحلق بأعداد كبيرة ، وكذلك الصقور ، وتحوم النسور فوق القرى .

انه عرض متباين ومفعم بالحياة ومشوق للنشاط البشرى والحياة الحيوانية ، وقد غلفها ضباب أزرق ملهى بالأتربة فى حر الظهيرة ، وكأن المسافر ينظر للحياة فى مصر القديمة تبعث من جديد .

لقد خلفنا وراءنا مدينة دمنهور وهى مدينة عربية صغيرة ، وعبرنا السهل وما زلنا نرافب ونتأمل ، وعبر القطار جسرا حديديا فوق النيل ، ولمرة الاولى نحى هذا المجرى المائى العظيم الذى يعد اقدم الانهار التاريخية ، وعلى الضفة الشرقية (اليمنى) مررنا بمحطة كفر الزيات وهى مدينة صغيرة قريبة من دمنهور .

وبعد مسافة غير بعيدة وصلنا المدينة طنطا الشهيرة والقديمة . وبدأت المدينة على البعد كحومة قمامه تحيطها حدائق مزهرة ونخيل وأشجار جميل كتيبة ، اما عندما أصبحنا اكثر قربا فقد بدت عاجة بكل أوجه الحياة الشرقية حركة وصنبا ، وقد شيدت بيوتها من طين ، ويقال ان البيوت فيها يتساقط بعضها فوق بعضها الاخر فى قوضى مرعبة الا أنها جميعا قد شيدت على النمط العربى فى منظر يستحق التصوير .

وطنطا مشهورة يسوقها التى تعقد بشكل منتظم ، وحتى فى أيام هيرودوت فان هذه الاسواق كانت تعقد فى مصر السفلى وغالبا ما كان ذلك فى شرق الدلتا . وتبعث هذه الأسواق الحركة والنشاط فى القطر كله وغالبا ما كان يصاحبها انغماس فى اللهو على نحو مسف ، وفى الأيام الماضية كانت هذه المهرجانات تعقد على شرف الالهة بباستيس Bupastis ، أما الآن فانها تعقد على شرف سيد طنطا (السيد أحمد البدوى) الذى توفى هنا سنة ١٢٠٠ م واعتبره الناس قديسا (وليا) ، وسواء أكانت هذه المهرجانات بمناسبة عقد أسواق أم على شرف الالهة بباستيس أم احتفالا بمولد سيد طنطا أحمد البدوى ، فانها جميعا قد احتفظت بروح التسيب والفجور المصاحب لها (٢١) .

لقد توقف القطار لدقائق معدودة فى طنطا ، وكانت المناظر التى رأيناها بعد ذلك لا تختلف عما رأيناه آنفا ، وعند بنها العسل عبرنا فرع دمياط .

وثمة قلعة كبيرة تشمخ بين البساتين هنا ، وقد حققت شهرة بسبب الحدث المروع الذى جرى بها • ففى سنة ١٨٥٤ قتل هنا عباس باشا بن طوسون الذى تولى الحكم ومحمد على لازل على قيد الحياة ، على يد مملوكين • ويقال انه لم يكن يستحق هذه النهاية المأسوية (٢٢) •

لقد أصبحت مناظر الدلتا بالنسبة لنا رتيبة ، ولذا فقد كنا سعداء باقتراب لحظة مغادرتنا لها •

فهنا وهناك كنا نرى عبر المروج الأفق الأصفر للصحراء الليبية (الشرقية) فى اتجاه الجنوب الغربى ، وإلى اليمين أمامنا رأينا فى وهج النهار أهرام الجيزة رغم أن الجو كان برتقاليا ومغبرا • انها لحظة مهيبه ، فتهجم الأفكار من تلقاء نفسها فتغمر عقل الرحالة الذى يرى بأم عينيه للمرة الأولى هذه الدلالات الحضارية ذات العمر السحيق ، ويجد نفسه فى أرض الفراعنة التى تعد الركن الحجرى الصامد لحضارة العالم •

والى الجنوب الشرقى ترتفع جبال المقطم كمائدة صحراوية ، وعند سفحها جدران القلعة ومآذن مسجد محمد على ، وبين كل هذا تمتد منازل القاهرة كالأمواج المتلاطمة بين سديم حار • انها المدينة الرئيسية فى أفريقيا • ما هى الا لحظات وسنصل للمدينة العريقة ، مدينة الخليفة ، لقد حف القطار من الجانبين بحدائق غناء • غابات من النخيل والجميز حول المنازل المنعزلة ، وعلى امتداد البصر ظهرت الخضرة الداكنة لمزارع حى شبرا Schubra Avenue ، وفى غضون دقائق كان القطار فى المحطة •

كان نائب السلطان (الخديو) Viceroy يحيط به رجال دولته واقفين على درجات السلم ، واستقبلونا بترحاب شديد •

واستقبل أعضاء الجالية النمساوية المجرية مواطنيهم
بترحاب حماسى باهر ، وذهبننا للحافلات التى كانت فى
انتظارنا . لقد كانت مزودة بأثاث ومعدات اوروبية فى
الناية من الجمال . وعزفت الموسيقى السلام الوطنى على
شرفنا . لقد عرفنا أن الحياة فى القاهرة ساحرة فاتنة من
مجرد النظرة الاولى . لقد انطلقنا فى شارع قصير الى جسر
يعبر قناة (ترعة) فى شارع شبرا ذى الخضرة والظلال .
وتتابع الصور ، صورة فى اثر صورة وكأننا فى حلم .
زحام بشرى ، وجمال محملة ، وحمير صغيرة وشرقيون فى
ملابس زاهية ملونة ، ومحلات فتحت جوارب من أبوابها
ومقام يجلس زبائنهم أمامها ، وأطفال يتشقلبون فوق التراب
وهم يصيحون ويتدافعون بشدة ، ولم يتنح واحد منهم عن
الطريق ، وفلاحات أصابهن الرعب يحملن جرار الماء فوق
رءوسهن ، هربن صارخات بمجرد اقتراب الحافلات بسرعة .
وقام الرجال المرافقون بتوسيع الطريق لحافلاتنا
بازاحة من فى الطريق ، مستخدمين عصيهم . وعن يسار
الطريق وكذلك عن اليمين لاحظت مساكن جميلة تحيط بها
حدائق فاتنة . وفى غضون دقائق قليلة درنا من خلال بوابة
معرشة حيث كانت توجد قلعة قصر النزهة Castillo of
Kasr-en-Nusha بين فيض من الأشجار والزرور الكثيفة ،
وحيتنا فرقة مشاة بالنفخ فى الأبواق .

لقد كان قصر النزهة هو محل اقامتنا الذى تفضل بنا
عليه بلطف كبير منه نائب السلطان (الخديو) عبارة عن
قلعة تتكون من مبنين مربعين ، يربطهما ممر ذو نوافذ
ضخمة زجاجية فوق بوابة المدخل . ان كل شئ داخل المبنى
وخارجه أوروبى ولا اختلاف الا فى الزينات والمعلقات
البهيجة والحمامات الشرقية وكثير من التفاصيل الصغيرة التى
لا تحصى التى تذكر المرء فى كل ركن أنه فى الشرق .

لقد اتخذنا لنا مجلسا بسرعة ورحنا نمتح عبق الحياة الشرقية ببهجة . لقد كان ترتيب المكان والشرفات الجديدة والطور المنبعثة من زهور الحديقة والهواء المنعش يذكرنا بالحكايات الخيالية الشرقية . وبعد ان تناولنا افطارا سريعا ذهب بعضنا للصيد مع البارون ساورما .

لقد عبرنا القناة (الترعة) مرة أخرى وجلنا خلال الجي الاوربي بشوارعه العريضة ومنازله الجميله وبساتين انريائه " وراينا على البعد مدخل الحي العربي وكان مسليا لنا ان نرى الفوضى ضاربة اطلابها في الشوارع ، حيث يرى المرء كل شيء : الحافلات الاوربية والحناطير الباتسة وحمير الركوب وحمير التحميل والبغال والجمال ، والاغنياء والفقراء والمتسولون والشرقيون المسلمون الأصلاء وأنصاف الأوربيين من أهل الشرق الأدنى ، وبالإضافة لكل هذا يرى المرء جمعا من الغربيين كسياح وما الى ذلك . ولما عبرنا قصر النيل عبرنا جسرا وجدنا الممرات الظليلة بين الحسدائق المواجهة للمدينة (القاهرة) ، وبالقرب من قلعة (قصر) طوسون باشا المحاط بالقنوات المائية والمروج توجد مزارع ممتدة لقصب السكر ، واقترحنا أن نقوم بالصيد في احدى هذه المزارع وكان الأمير تاكسيس Taxis وأخو البارون ساورما في انتظارنا في المكان ، وكانت البنادق معدة والكلاب على أهبة الاستعداد .

وظللنا لفترة طويلة ولم تشم الكلاب الألمانية (من نوع داشهند Dashshunda) ما يدل على وجود ما يمكن صيده ثم سمعنا عواء عاليا بالقرب من حافة الحقل ، ولسوء الحظ فان الذئب خرج من مخبئه الى بقعة لا يمكن أن تطوله فيها البنادق لذا ، فقد عبرنا القناة (الترعة) العريضة الى مزرعة أخرى . وأطلقنا الكلاب مرة أخرى لكننا اضطررنا للتخلي عن رياضتنا بينما كانت الكلاب قد راحت تتشمم ريح

الطرائد بالفعل ، ذلك أن الفلاحين كانوا قد بدءوا فى قطع القصب فى أحد جانبي الحقل .

لقد كان عدد كبير من الفلاحين البؤساء يلبسون البسة متواضعة - رغم أن لبعضهم منظرا يوحى بالقوة - يعملون تحت اشراف خولى overseer يلبس عباءة طويلة ويحمل فى يده كراباجا من جلد وحيد القرن ، وقد تقدم منى هذا الخولى بزهو وتحدث طويلا وهو يومئذ كثيرا اتناء الكلام ، وقد فهمت بعد لآى أنه يرغب منا مفادرة الأرض . ولما رأيت أنه يرفع صوته أكثر من اللازم ويحرك يده بعنف استدعيت عثمان الخادم الأسود للبارون ساورما ، ولما رأى هذا الشرقى الفاضل (الخولى) البزة المميزة لخادم القنصل انخفض صوته وتراجعت نبراته وانسحب سريعا خوفا من خطر يحقق به ، واختبأ داخل أعواد القصب الكثيفة (٢٣) .

وعدنا جميعا الى الحافلات . لقد كانت أول محاولتنا للصيد غير ناجحة ، وان كنا قد أطلقنا النار على بعض الطرائد الصغيرة .

وقد صحبنا البارون ساورما للقاهرة القديمة (٢٤) وهى أكثر مناطق القاهرة قدما وتقع ناحية الجنوب ، وكان علينا أن نعبىر الجسر (الكوبرى) مرة أخرى ثم ندور بالقرب من النيل الى اليمين بالقرب من قصر نائب الحاكم Vice-Vogal لقد أدى بنا الطريق بسرعة الى أكثر المتاهات اثارة ، حيث الخرائب والبقايا والقاذورات والأطلال من مختلف الأنواع .

ويقطن أفقر السكان فى مساكن بائسة على وشك الانهيار . لقد انتهى الطريق الذى يمكن أن تقطعه الحافلة بين الأحجار وأكوام الرمال ، وكان علينا أن نغادر الحافلات بين نخلتين وأن نتابع مسيرنا على الأقدام .

ومن فوق كومة عالية كان أحد جوانبها يمثل بقايا جدار قديم لآخر منازل المدينة متعنا العين بالمنظر السرائع

وفى هذا الموضع تمرح الضباع وتمسوى أبناء أوى وتنبح
الخاب المتوحشه ليلا . لقد طوقت السحب قرص الشمس
بتدرج لوني متباين ، بينما هى تنرب فى الصحراء الليبيه
(الغربيه) البرتقالى لونها ، جعلت كل شىء يسبح فى بحر
من ذهب . والأهرامات ومآذن المدينه وفتحات حصونها
والقلعة ومنحدرات جبل المقطم العاده . لقد كانت صوره
فى الغايه من الثراء تشكيلا ولونا لا شىء يمكن أن يتصوره
المرء أكثر جمالا من ذلك . انه منظر غاص بكل ما فى
الطبيعه وما فى العمارة من بهاء .

ويقع مسجد قصر العين Kasr el-Ain Mosque المنحرب
والمهجور بين أكوام من الحطام ، وجدرانته القديمه
قد سكنتها أنواع من طيور الكروان ، وهو طائر يفضل
المستنقعات وينشط فى الظلام ، فاذا هبط الليل غادر أوكاره
يصيح صيحات حاده غير منقطعه ويتخذ سبيله للنيل ويسمع
المصريون عزفه طوال الليل فى سائر أنحاء مصر .

وقد تمرکزنا على طول المسجد ورحنا نراقب هذا
الطائر الغريب ، فكلما أغتم الليل كانت مجموعات منه تغادر
أوكارها . انها طيور سريعة وحذرة للغاية حتى ان هويوز
Hoyos كان هو الوحيد فينا الذى نجح فى اسقاط واحد
منها . ورحنا نتعثر فوق الخرائب والأطلال مسترشدين
بنباح الكلاب التى رحنا نحثها ، وبحملقات العرب البارعين
فى قص الأثر والذين خرجوا من جحورهم (بيوتهم) حتى
وصلنا الى حافلاتنا .

لقد كان طريق العوده شاقا وبطيئا فلم نستطع معرفه
وجهتنا فى الظلام خلال خرائب القاهره القديمه وأطلالها
المعقدة ، وقد وصلنا بعد ذلك لبساتين وحدائق وأخيرا
وصلنا للمدينه (القاهره) الحديثه بشوارعها المزدهنه
والمضاءه اضاءه جميله .

ولما وصلنا مستقرنا وتناولنا عشاءنا أتى مواطنونا
وهم يحملون المشاعل الى حدائق قصر النزهة * وكان عزيمتهم
« يحفظ الله الامبراطور » وصيحاتهم وترحيبهم يدوي
— بشكل غريب — خلال ليل أفريقيا الهادئة الرائع * وعند
انتهاء هذا الترحيب الحار ذهب كل منا لينال قسطه من النوم
والراحة *

وفي بكور اليوم العشرين اتخذنا سبيلنا الى اقدم الاحياء
الغربية، نتحضر قداسا هي كنيسة قبطية * لقد وصلنا لايواب
مبنى قديم بعد ان مررنا بممر ضيق لا يمكن دخوله الا سيرا
على الاقدام ، والمساكن المجاورة لهذه الكنيسة يسكنها
مسيحيون وبخاصة القبط، ويمرور الوقت كثر عدد المسيحيين
القاطنين حول الكنيسة التي يسمونها « بيت المسيحيين
House of Christians » وكان في انتظارنا بعض الاكليروس
(رجال الدين) بملامحهم الداكنة ولحاهم الطويلة وسحنهم
التي تشبه بشكل واضح سحن اليهود وعباءاتهم السوداء
ذات الثنيات ، وهم مختلفون جدا عن كل اكليروس الملل
الأخرى ، وكان أسقفهم في مقدمتهم *

والعقيدة القبطية — كأي شيء آخر في الشرق — بقيت
دون تغيير في الأعراف والعادات والطقوس والملابس
الكنهوتية * فهم يرتلون القداس كما كان يرتله المسيحيون
الأوائل الذين أدخلوا المسيحية من آسيا الى أفريقيا ويؤدون
الطقوس ويبشرون بالطريقة نفسها التي كان يتبعها
أسلافهم * لكن طقوسهم وشعائهم لا تتفق أبدا مع طقوسنا
وشعائنا في الغرب وانما احتفظوا بها (الطقوس والشعائر)
كما كانت * ونحن نرى في القبط المصريين صورة عقائدية
للمسيحية في أيامها الأولى * ان هؤلاء المصريين القبط هم
ممثلو عقيدتنا في شمال شرق أفريقيا وان كان أثرهم قد
امتد بعيدا داخل القارة المظلمة *

ومن الناحية العرقية فإن قبط مصر ينتمون للعرق نفسه الذى ينتمى اليه المصريون الآخرون (٢٥) ورغم انتصار الاسلام وكثرة أتباعه ورغم قلة عدد المسيحيين الاقباط بالمقارنة بالمسلمين ، الا أنهم كانوا قادرين على الاحتفاظ بعقيدتهم وتراثهم حتى اليوم .

وقد رأينا بين الذئنة والقسس وغللمان الخوروس (٢٦) (بضم الخاء والراء) (★) الوجوه البنية الداكنة وجسوه الافارقة الخالص . لقد كان هناك مصلون كثيرون خاصة من القبط — رغم وجود مسيحيين آخرين يتبعون طقوسا كنيسة أخرى — فى الكنيسة البسيطة الفقيرة . وترتدى نسوة الاقباط الملابس الشرقية القديمة مثل المسيحيات فى بلاد الشرق ، وقد رأينا نسوة كثيرات بعد ذلك يرتدين الملابس ذاتها عند زيارتنا للأماكن المسيحية المقدسة، والنسوة القبطيات محجبات بحجاب أبيض مثلهن فى ذلك مثل المسلمات . وبعد تلاوة القداس استأذنا فى الانصراف من ممثلى هذه الهيئة الدينية التى تعد أكثر الهيئات الدينية طرافة (بالنسبة لنا) واتخذنا مسيلنا للتجول فى الأحياء العربية ومعرفة ما بها .

وقد قدمت لنا الأحياء الشرقية فى القاهرة صورة خصبة من حيث اللون والتأثير جذبت اهتمامنا ، ولا يستطيع غير الشرق أن يقدم لنا كل ذلك . دعونى الآن أشير الى بعض المسائل التى جذبت اهتمامى ، وان كانت أمور الشرق تحتاج لمساحة أكبر ودراسة أدق وجهد خاص لتسجيل خصائصها بدقة وتفصيل .

لقد مررنا بين محلات وأسواق ومقاه حيث الجلبة المتولدة عن حياة العرب — لنصل الى أول مقاصدنا وهو المسجد القديم (٢٧) ذى الطابع التاريخى .

(★) الغلمان الذين يرتدون فى جوفة الكنيسة — (المترجم)

لقد كانت الطرقات الضيقة مسقوفة في كثير من المواضع بالحصر أو السجاد لحجب الشمس ، وكانت المنازل مبينة بالطين وبها نوافذ ناتئة مسدودة (مشربيات فوسية bow window) (*) (٢٨) جميلة وأخرى مشبكة خاصة بإحريم ، وكل حليها (٢٩) ورخامها على النمط العربي . انه مزيج مدهش يحلو للمرء النظر اليه . لا شيء يتسم بالتناسق (السيمتريّة) ومع هذا فكل شيء يستحق التأمل بل ويستحق أن يسجله فنان بريشته فحتى الخرائب تعطى للصورة تأثيرا ينم عن خصائص الأصالة الشرقية .

لقد دخلنا ساحة the Court مسجد الحسين وهو مسجد كبير وجميل ، بنى احياء لذكرى الحسن والحسين أولاد (الامام) على زوج ابنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد استشهد الحسين في معركة كربلاء سنة ٦٨٠ للميلاد ، وتم الاحتفال برأسه في هذا المسجد ويعقد احتفال كبير كل سنة احياء لذكراه طول أربعة عشر يوما في شهر ربيع الثانى ، وهو الشهر الرابع فى السنة الهجرية (٣٠) .

وقد خلعنا نعالنا وصحبنا درويش لطيف الى داخل المبنى ، وكان مبنى المسجد من الداخل حسن العمارة ثرى الزينة .

لقد كان يجلس فى حلقة عدد من الناس تدل أثوابهم الشرقية على الثراء ، على سجاجيد فاخرة وراحوا يقرءون بصوت خفيض تفسير القرآن (الكريم) من كتب قديمة ، وفى الوقت نفسه يقوم شيخ عالم بشرح لبعض الفقرات المهمة وهو جالس وسط حلقة المؤمنين . وراح آخرون يركعون ويسجدون وهم يولون وجوههم صوب مكة (المكرمة) .

وفى هذا المسجد كما فى المساجد الأخرى يتم تزيين المحراب بالمخمل الأخضر وهو يشير الى اتجاه الكعبة أكثر.

(*) المقصود به مسجد الحسين كما سيتضح - (المترجم) .

الآماكن - على ظهر الأرض - قداسة عند المسلمين • وتتدلى ثريات ضخمة من القبسة ، ولا تقل التصميمات الشرقية الأصيلة داخل المسجد ، فى جذبها لانتباه الغرباء ، عن سلوك المؤمنين المترددين على المسجد •

وفى ساحة مجاورة للمسجد توجد مiazza جميلة يرتادها المسلمون للوضوء • ان نظرة لهذا الحوض بحوافه من الحجارة المصقولة تعطينا انطباعا بالنظافة الفائقة • وبمزيد من البحث يتأكد الانسان أن القرآن الكريم فرض على المسلمين النظافة فقبل أن يدخل المسلم أكثر المواضع طهارة فى المسجد عليه أن يتوضأ • والمسلم يبدأ وضوءه وهو جالس ويتمتم ببعض الأدعية أثناء ذلك • ويمنعنى الأدب واللياقة من الاغراق فى الوصف أكثر من ذلك • وبعد اتمام الوضوء يتوجه المسلم الى بيت الله • ولقد لاحظت مرات عديدة أن عددا من الأشخاص يذهبون للمiazza فى وقت واحد ، مع أن هذا الحوض الصغير (المiazza) به ماء غير متحرك فليس له مسرب (بفتح الراء) يدخل الماء منه وليس له مخرج ، فالماء فيه غير جار ، وفى كل ممرات المسجد وأروقته تجد زرافات من الناس يدخلون ويخرجون ولمعظمهم منظر لافت للنظر بعباءاتهم الطويلة ، ويناشدك المتسولون المصابون بالعرج أو الشلل بمنظرهم المرعب أن تدفع لهم الصدقات • وبينما كنا نغادر المسجد وجدنا رجلا كبير السن ذا لحة بيضاء ، يرتدى لباسا شرقية فخمة ويعتم بمسامة خضراء اشارة الى أنه شريف (من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم) ، وجدناه يترجل من فوق حصانه القوى ذى السرج الفاخر وسلم رسنه (بفتح الراء) للخادم الذى يتبعه ، ثم دخل بيت الله بوقار •

لقد كان هذا الشرقى المميز صورة حية جعلتنى دوما أتخيل الحكماء فى الخرافات الشرقية الرائعة ذات المعزى •

واتخذنا سبيلنا بعد ذلك للجامع الأزهر الشهير ويرجع تاريخه الى تاريخ القاهرة ذاتها ، وقد بدأ بنيانه جوهر قائد جيوش الخليفة المعز * ويتطلب وصف هذا المبنى (المسجد) العتيق أن نرجع لتاريخ القاهرة *

فعندما استولى عمرو بن العاص قائد جيوش الخليفة عمر على حصن بايليون الذى يقع فى القاهرة القديمة الان (حى مصر القديمة) (٣١) وبدأ يتخذ طريقه للاسكندرية بنت حمامة - فيما تقول الحكاية - عشنا عند الخيمة التى كان عمرو يقيم فيها اثناء الحصار وبدأت - أى الحمامة - تضع بيضها ، فامر القائد عمرو بعدم هدم الخيمة حتى لا تنزعج الحمامة * والكلمة العربية الدالة على الخيمة تعنى المسطاط *fošṭāṭ* (٣٢) *

وعاد عمرو الى خيمته هذه بعد أن استولى على الاسكندرية فوجد حولها مدينة تحمل اسم الفسطاط فبنى عمرو بنفسه هذا المسجد فسمى بعد ذلك جامع عمرو ، وعندما استقر العرب فى عهد عثمان بن عفان (رضى الله عنه) فى وادى النيل أصبحت الفسطاط هى حاضرة (عاصمة) مصر التى تقيم فيها الحكومة ، وعندما زار الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) بن هارون الرشيد مصر كان بالأزهر فعلا مدرسة لتلقى العلم ، وزاد ازدهار الفسطاط تحت الحاكم أحمد بن طولون الذى أعلن نفسه سلطانا على مصر (٣٣) ، وجعل الحكم فيها لورثته * وفى غضون حوالى مائة عام فقدت الفسطاط وضعها كعاصمة فعندما استولى جوهر قائد جيوش المعز الذى أعلن نفسه خليفة فى المغرب (تونس) على الفسطاط باسم سيده المعز ، قام بتأسيس عاصمة جديدة غير بعيد عن الفسطاط ، ولما قدم المعز لمصر استقر فى هذه العاصمة الجديدة وأسماها مصر القاهرة *Masr el-Kahira* وهكذا أصبحت القاهرة عاصمة لامبراطورية الخلفاء الفاطميين ، وسرعان ما نمت وتطورت تطورا سريعا *

والمعز هو ابن العزيز بالله وخليفته هو الذى أسس
جامعة الأزهر the University el-Azhar ، وقد امتدت
المدينة الى باب النصر وباب الفتوح (وهما البوابتان الأثريتان
اللتان سنتحدث عنهما فى ثنايا هذا الفصل) فى عهد خليفته
الحاكم * ولم يبذل صلاح الدين الأيوبي الذى بنى القلعة
واحاط القاهرة بسور جهودا كبيرة كالتى بذلها الفاطميون
لتطوير المدينة * وقد زين كثير من السلاطين المماليك
القاهرة بمبان جميلة خاصة قلاوون والأشرف خليل
وحسن (١٢٤) وبرقوق وقايد بك والفورى ، ورغم هذا
فقد كان سكان القاهرة - وهذا حقيقى - يعانون من استبداد
المماليك وجشعهم وسلبهم اياهم بشكل لا يحده حد *
وفى سنة ١٥١٧ وضع السلطان سليم الأول العثماني نهاية
لتطور القاهرة ونموها : فبعد انتصاره فى معركة عين شمس
استولى على القاهرة عنوة ، وشنق طومان باى آخر سلاطين
المماليك على باب زويلة فى ١٥ أبريل ١٥١٧ ، واختفت
القاهرة من صفحات التاريخ ولم تدخل مرة أخرى الا أثناء
حملة نابليون بونابرت على مصر *

لقد كانت كل هذه الحوادث التاريخية منذ أيام الاسلام
حاضرة فى فكرنا ونحن ندخل الجامع الأزهر الذى تحول الى
جامعة (مدرسة) فى عهد الخليفة الميزن بالله (٩٧٥ -
٩٩٦ م) ولازال الجامع الأزهر هو أكثر الجامعات
شهرة فى الشرق ، وهو بمثابة معمل لتفريخ التعصب
الاسلامى (★) and Likewise the breeding place of
Mohammadan fanaticism.

(★) هذا يبين بوضوح أهمية الأزهر الشريف فى الحفاظ على روح مصر ، ويلاحظ
الترجم تحامل معظم الرحالة الأجانب ضد الأزهر الشريف وتفضيلهم الاسلام اللاعقلاني
أو غير العملى أو اسلام الدراويش * راجع مقدمة المترجم *

ومبنى المسجد واسع جدا وصفوف الاعمدة فيه يتبع بعضها بعضها الآخر ، والأروقة متتالية ، وقد أمتعت نفسها بملاحظة أساليب الحلاقين الشرقيين العريقين الى جانب بوابة الجامع الرئيسية . لقد جلس هؤلاء الحلاقون متربعين على الأرض وأمسكوا برءوس ضحاياهم (زبائنهم) بين ركبهم وواصلوا تفريشها بالصابون اللاذع وراحوا يحكون بأمواسم رءوس الزبائن حتى غدت ناعمة كالزجاج . فالمسلم الحقيقي يجب ألا يكون في رأسه شعر (٣٥) ، فلا أحد من المسلمين يحتفظ بشعر لرأسه سوى أفقر الفلاحين أو البدو غير المتحضرين . وفي المدن تعتبر الرأس الصلحاء دالة من دلالات الجمال .

ويقوم الحلاقون بحركات رشيقة أثناء تزيين زبائنهم وقص شعورهم وغسل رءوسهم وتعطيرهم بعطر زيت الورد وغيره من الدهانات العطرية مما يروج لنشاطهم (يمثل دعامة لعملهم) .

ثم مررنا بمسجد آخر صغير تابع للجامع الأزهر في الساحة الواسعة ، وبه أحواض (مياضة) ، والممرات المحيطة به مقسمة بعوازل خشبية ، ويوجد في جدرانه شبابيك مغطاة بخشب مشغول Lattices يحفظون فيها المخطوطات ، وفي الجانب الشرقي للساحة يوجد الرواق الواسع للمسجد وتراه مزينا بثلاثمائة وثمانين عمودا من الرخام العادي والرخام السماقي والجراثيت وقد تم تزيينها بقطع أثرية تم حشدها جميعا بدون مراعاة كبيرة للتناسق . وثمة أربعة أروقة للصلاة كل رواق منها لواحد من المذاهب الإسلامية المعترف بها : المذهب الشافعي ، والمذهب المالكي ، والمذهب الحنفي والمذهب الحنبلي ، وهذه الأروقة يفضى بعضها الى بعضها الآخر عند المؤخرة . وتتبدل من السقف مصابيح ملونة لا حصر لها وتوجد - حجرة مزينة جانبية يوجد بها مقام (قبر) الشيخ (الولي) عبد الرحمن كنيا Kichya .

وعلى أية حال فإن أكثر المشاهد جدارة بالملاحظة هو الطلاب البالغ عددهم عشرة آلاف ، والقادمون من مختلف أنحاء العالم الاسلامى ، والذين يزدحمون فى كل موضع فى المسجد ، ليس فى الأزوقة فحسب وإنما فى الممرات والصحن وكل مكان فى هذا المبنى الضخم .

انك ترى هنا كل أجناس البشر من الزنوج السود الى Cherkesse الصفر الشاحبين . كل الأجناس ممثلة هنا . ان التنوع الشديد فى الألوان والأزياء يبهج عين الرائي بل ويرى المرء البدو الواعين بعباءاتهم البيضاء يجلسون بين الطلاب كطلاب .

ويجلس المعلمون (المشايخ) على مقاعد مرتفعة فى سقائف صغيرة مصنوعة من جريد مشبك ومضفر . ان منظرهم مضحك للغاية ، فمعظمهم طاعنون فى السن وغالبهم من أصحاب العاهات وقد لبسوا الملابس الشرقية ووضعوا العمام على رؤوسهم والنظارات متدلّية على أنوفهم . وهم يصرخون بصوت عال أثناء القاء محاضراتهم على سامعيهم ويومنون ويشيرون اشارات لم أر أسخف منها . وليس أمام هؤلاء الأساتذة (المشايخ) الا نسخ قديمة متربة من القرآن (الكريم) (★) مصدر المعرفة الشرقية التقليدية ، ويستعينون بعضا طويلة من الغاب (البوص) لحفظ النظام بين طلبتهم ودفعهم للانتباه ، ويتحلق حول كل مدرس (شيخ) شباب فاترون لا يبدو عليهم الاهتمام وقد تربعوا أو جلسوا القرفصاء أو اضطجعوا فوق التراب . وبعضهم يصغى وآخرون يكررون بصوت عال خلف مدرّسهم (شيخهم) . ويمكنك أن تتصور مدى الازعاج فى هذه المؤسسة التى تسمى جامعة أو مدرسة عليا . انه مشهد مربك حقا بالنسبة لأى أوربى ، فمن الصعب علينا نحن الأوربيين أن نتصور

(★) النص : Old dusty Koran books, the Pros and Cons of Eastern love.

ان الأمور تجرى على هذا النحو فى جامعة القاهرة (المقصود
الأزهر) ذات الشهرة العريضة فى العالم كله .

وبعد أن مكثنا قليلا غادرنا الغرف الحارة التى كانت
تنبعث منها رائحة مرعبة ، وتحوم فيها جيوش من الدباب
تبحث الغريب على التراجع والمودة من حيث اتى .

وكان علينا بعد ذلك أن نمر بثلاثة مساجد كانت تتميز
بالوانها الزاهية ومآذنها الشامخة : جامع السلطان قلاوون
الذى يرجع الى عام ١٢٨٧م ، وجامع محمد الناصر الذى
يرجع للقرن الثالث عشر الميلادى ، وجامع برقوق الذى
يرجع للقرن الرابع عشر الميلادى ، وفيما عدا القيمة
التاريخية لهذه المساجد فلم يكن بها كثير مما يثيرنا .

أما بوابة النصر ، فقد جذبت انتباهنا أكثر مما جذبته
هذه المساجد ، فقد كان — على جانبيها — برجان مربعان ،
وذكرتنا أحجارها الداكنة الوقور بتاريخ العرب فى
العصور الوسطى .

ولما عبرنا هذه البوابة تتبعنا طريقا قادنا الى ما وراء
مقبرة قديمة للمسلمين فوق أكوام من الأحجار والبقايا ،
على طول سور القاهرة الداكن حتى باب الفتوح الشهير .
وكلتا البوابتين أنفتحتى الذكر (باب النصر وباب الفتوح) ،
قد تم انشاؤهما فى عهد المستنصر الخليفة الفاطمى . لقد
عدنا الآن الى جانب أكثر حيوية فى الحى العربى ، لتتفحص
بمناية كاملة النشاطات المتعددة داخل السوق .

ولا يستطيع أن يصف أسواق القاهرة وصفا مفعا
بالحياة زاخرا بالألوان الا كاتب محترف عرك الرحلات وجاب
الأقطار ، فوصف هذه الأسواق ليس مهمة سهلة ، لذلك فسوف
أكتفى بالكتابة عن قليل من المشاهد المتميزة التى تقسم
صورا حية لها خصوصية متفردة .

فشارع الموسيقى يقطع المدينة العربية القديمة ، ويبدا هذا الشارع من ميدان العتبة الخضراء ويستمر حتى مقابر الخلفاء . وهذا الشارع هو عصب (شريان) حياة القاهريين ذات الطابع الشرقى .

فهذا الشارع يقدم لنا صورة صادقة للعاصمة الترسية ، فهو ليس عريضا ، ومبانيه غير منتظمة كما انه غير مرسوف ، ورطب ، وتتجمع فيه الاوساخ من كل نوع ، وهو مسرح لمعارك بين مالا حصر له من السدب الشرسة ، وقد سقف الشارع بالحصر ، ويعج بضوضاء تجلب الصمم ، وتنبعث منه روائح نتنة تثير القرف والاشمئزاز .

وفى مقدورك ان ترى هنا فى شارع الموسيقى كل الجماعات الشرقيه التى تحظر لك على بال بمظاهرههم المختلفة والنوائهم المتباينة : رجال ذوو عمائم وعباءات واسعة غير داكن لونها تسر الناظرين ، وعسكر ، وبدو ، ويهود فى ازيائهم النوراتية (التى ورد ذكرها فى التوراة) واتراك ، واهل اسيا الصغرى ويونانيون وميديون ومن الشرق الأدنى وارمن ، أغنياء وفقراء ، وفلاحون فى ثياب زرق وفلاحات حملن اطفالهن على صدورهن ، ونسوة ثريات يركبن حميرا ويتبعهن خصيانهن eunuchs يخرسونهن ، وراكبو الجمال ، والبغال المحملة بالبضائع ، والنوبيون داكنو البشرة ، والزنوج الخالص ، والمواكب الدينية الاسلامية Mohammedan Processions ، وال دراويش المبروكون والتجار والمتسولون الذين بترت أعضاؤهم ، والسقاؤون وقد حملوا القرب الجلدية فوق ظهورهم - كل هؤلاء سيتحركون غدوا ورواحا فى قوضى مريكة .

والأصوات المزعجة تؤذى الأذن الأوربية وتكاد تصيبها بالصمم أو تجعل فيها وقرا . فالضوضاء تنبعث من الزحام وكأنها زئير ، أضف الى هذا أنين المتسولين المرير ، وصيحات السائقين ورنين النقود وصلصلتها وقعقة الكئوس والأكواب

عند اصطدام بعضها ببعضها الآخر ، وصياح الباعة الجائلين
وبائعي القهوة (القهوجية) مادحين بضاعتهم بمبالغة وتيجح ،
وجثث الجمال ونباح الكلاب والصيحات التحديريه اللى
يطلقها الحمارون ، وأصوات السياس وهم يجرون أمام
العربات التى تجرها الدواب .

انها مناظر جديدة تصافح عيون الغرباء فى كل منعنى ،
وتظل هذه الحركة الدائبة من الصباح الباكر ، حى وقت
متاخر من الليل على طول شارع الموسكى .

وتمتد الأسواق ذات اليمين وذات الشمال داخل ازقة
وحوار ضيقة وساحات - وهينة المنظر كله تمتل سوقا شرفية
أصيلة تعرض البضائع الشرقية فى مبان صممت عمارتها
لتعطى طابعا وطنيا أصيلا ، والاهم من كل هذا من حيث
صبغ السوق بطابع شرقى هو سلوك المشتريين والبائعين .

وسوق الحمزاوى هى سوق التجار المسيحيين ، اما سوق
العطارة فتسمى سوق العطارين ، وثمة سوق ينال لها سوق
الفحامين Fahhami وهى زاخرة بالبضائع التونسية
والجزائرية ، أما حى الجواهرية (الجواهرجية) ففى الحى
اليهودى ، وخلفه سوق الصاغة ، وأخيرا سوق النحاسين ،
وقد تضحنا هذه الأسواق جميعا .

وقد اشتريت بعض الحلى العربية ودرعا قديما الى
حد ما ، وبعض المشغولات الذهبية والفضية . لقد كان
البائعون المعممون يجلسون فى محلات مفتوحة متربعين
With Crossed legs (☆) وارتدوا ملابس فضفاضة وراحوا
يدخنون الشيشيوك أو يشربون القهوة ، ويتسابعون
الغريب بنظرات متفحصة لمعرفة هدفه ، فاذا ما أدركوا أنه
جاهل أو ليس له معين ولا يدرك طرق الخداع الشرقية -

(☆) يمكن أن يكون المعنى « وقد وضعوا ساقا على ساق » ، لكننا فضلنا ما أوردهنا
فى المتن ، لعدم وجود اشارة الى مقامه - (المترجم) .

راحوا يتحدثون بحرية بلغتهم ليفرضوا عليه أغلى البضائع ،
ويضيع الأوربي التعس إذا لم يدركه المترجم الماهر بمدد من
العون . فقد يعود الأوربي لوطنه محملاً ببضائع قد تدون
مغشوشة ، وبها — بالتاكيد — بعض العيوب ، بعد أن يدون
قد خسر ماله كله . وفى السوق يؤكد العرب أنهم جنس
سامى حقاً كإخوانهم اليهود وأنت لا تستطيع أن تميز بينهما
— العرب واليهود — إلا بمشقة .

وأكثر أسواق القاهرة إثارة وتشويقاً هي سوق خان
الخليلى Chan-Chalil ، فهذه السوق حى خاص بها ، ويعود
تاريخها الى السلطان المملوكى الأشرف صلاح الدين خليل .

ففى هذه السوق تجد الحياة الشرقية مفعمة بالحركة
المختلفة والنشاط المتباين . أنك تجد أكثر البضائع أصالة
ومن كل الأنواع ، وكلها شرقية ، بالإضافة الى منتجات
زنجية ، خاصة من السودان .

وفى سوق السجاد ذهبت الى ساحة (حوش) منزل تاجر
ثرى ، وبسط هذا الرجل العجوز باعتزاز يفوق الوصف
سجاجيده الراقية الثمينة . انها سجاجيد تركية وعجمية
(فارسية) ثمينة جداً — خاصة العجمى منها .

وبعد أن قضينا ساعات كثيرة فى الأحياء العربية فى
المدينة عدنا ادراجنا الى الموسيقى ، بعد أن مررنا بشوارع
مزدهمة وضيقة . وأول ما لاحظته تلك الحشرات التى
لا حصر لها . ملايين من الذباب الكبير الأسود تملأ الشوارع
وتحلق حول الشرقيين ، فلا يذبحها الواحد منهم بعيداً عن
وجهه بل يسمح لها بأن تحط على وجهه فتكاد تغطيه . وهذا
الذباب يحمل القاذورات والعدوى الى العيون وهذا يفسر
أن عدداً من الأشخاص مصابون بالعمى وآخرون مصابون
بأمراض عيون تجعل مناظرهم تدعو للقرف والاشمئزاز .
وبشكل عام فإن المرء يرى فى الشوارع العرج والمشلولين

وأناسا مصابين بعماهات وأمراض وتشوهات بعضها لا يخطر
على بال أوربي .

وفى الموسيقى استأجرنا حميرا . وهى حيوانات هزيلة
مزودة بسروج (برادع - والجمع بردع) ويسندونها
الألوف لقتلح القاهرة من طرف الى آخر ، وهى بذلك تحل
محل العربات التى تجرها الخيول فى أوربا (الكابات Cabs) .

وسارت بنا الحمير بنخب سريع حينما وبعدو حينما اخسر
ويحثها الحمارون السائرون خلفها ، فقطعنا شارع الموسيقى
كله وعبرنا الحى الأوربي وعبرنا ترعة الاسماعيلية الى حى
شبرا ثم عدنا لقصر النزهة .

وبعد ان مكثنا قليلا ذهبنا لنائب السلطان (النديو)
Viceroy ، لزيارته زيارة مبدئية وان كان ميعاد الزيارة
الرسمية لم يعن بمد . وكان قصره الذى يصرف فينس
امور البلاد يقع فى الجانب الغربى لمدينة القاهرة الحديثة ،
وهو مبنى ضخم على النسق الأوربي تماما ، فليس به أى
طابع محلي خاص .

وقابلنا النديو بود شديد وفقا للعادات الشرقية ،
وقدمت لنا القهوة الممتازة فى فناجين تركية صغيرة ودخنا
الشيبوك .

وسرعان ما انتهت الزيارة ، فاتخذنا طريقنا عبر الحى
الأوربي ثم مرة أخرى عبر الأحياء العربية ، حتى وصلنا
لجامع السلطان حسن القريب من القلعة . انه مسجد ضخم
عتيق ، لكنه - للأسف - مهمل اهمالا جسيما ، مع أنه أجمل
الجوامع التى رأيتها فى القاهرة فهو مبنى على طراز عربى
صميم ، ومن المحزن أن أقول ان قبر السلطان الميضاة
والأروقة - كل ذلك مخرب .

وعلى أحجار الأرضية يرى المرء آثار دماء لازالت باقية
منذ أيام مذبحه الانكشارية الأولى سنة ١٣٥١ .

وعدنا لمصرنا سالكين اقصر الطرق لنتناول اعصارا
سريعا خفيفا ، لنبدأ من جديد رحلة الى الاهرامات بأربعة
خيول ، وحوذيين *

لقد كان الطريق الذى سلخناه يمر - أكثر من مرة -
خلال كل المدينة ذات الطابع الاوربى حيث للمباني تصميم
أوربى الا انها ذات زينات وزخارف شرقية ، فكانت جذابة
بفضل هذا المزج بين ما هو شرقى وما هو غربى * لقد
أبهجتنى البساتين الناضرة بأزهارها الفسوحة وشجيراتها
ونخيلها التى تداعب النسائم أغصانها وجريدها ، ورايت
وسط المدينة عددا من الطيور الجارحة : آلاف الحدقات تحلق
فى الجو أو تقف على الأسطح ، وصقور الجيف التى تنقض
فى الشوارع . وسمعت أغاني الطيور وهديل الحمام وغمرت
نفسى فى النسائم الشافية لمصر المقدسة ، متذكرا شتاء أوربا
القارس الذى هربت منه ذات مرة *

وعند قصر النيل الفسيح عبرنا النهر المقدس وجزيرة
برلاق وتجاوزنا بعض الفيلات Villas الخاصة بنائب السلطان
(الخديو) وبعض الحدائق البهية ، وسرعان ما وصلنا الى
طريق مرتفع تحفه الأشجار ويمتد بشكل مستقيم بين
الأراضي الزراعية ويمر ببعض القرى العربية البائسة حتى
حافة الصحراء *

لقد سارت بنا المركبة مسافة بضع مئات من الخطوات
فى الرمال الصفراء للصحراء الليبية (الغربية) ، وتوقفت
عند قاعدة تكوينات عملاقة تطل علينا من عمق آلاف السنين
من تاريخ العالم * ان كل رحلة يحملق - للمرة الأولى - فى
هذه الآثار (الأهرامات) الباقية من أزمنة سحيقة لتغشاه
رهبة من نوع خاص ، أيمنه أن يلمس بيديه أحجارا ظلت

باقية منذ أيام ما قبل ابراهيم (الخليل) • انها لازالت
باقية بسبب جهد الانسان ومهارته •

ولئن وصفت أهرام الجيزة لكررت اذن عملا قدمه
غيرى أكثر من مرة ، فقبور الأسرات الحاكمة التى تعود
للعصور القديمة تفوص الى مستوى الريجي (٩٩) (★) « level of a Rigi
• ويسىء السائح الغربى الى هذه الأحجار
الجليلة فهو لا يدرك كنه دلالاتها •

لقد رأينا أهرامات خوفو وخفرع ومنقرع • كما رأينا
(أبو الهول) وقد غطت الرمال نصف جسده ، وشرع بعض
العرب فى تسلق الهرم الثانى لطرد حيوانات ابن آوى الكامنة
بين صخوره ، ولسوء الحظ فاننا لم نكن نتخذ موقعا جيدا
لذا فان اثنين من هذه الحيوانات قد هربا دون أن يلحق بهما
أذى وانسلا الى الصحراء الشاسعة بين السوديان الجافة
والتلال • وقد أطلقنا بعض الطلقات من موقعنا عند سفح
الهرم على هذه الحيوانات وهى تهبط بسرعة قافزة برشاقة
غير معتادة بين الأحجار ، لكن أيا من طلقاتنا لم يصب هدفا ،
فقد كانت المسافة بعيدة جدا •

وقد أعطتني الأهرامات انطبعا - خاصة عندما يتسلقها
انسان أو حيوان - انها أقرب ما تكون جبال صناعية عظيمة
شيدها الانسان أكثر من كونها أثرا معماريا •

وغربت الشمس وسبحت المرثيات فى بحر من الضياء
البهية ، وتألقت أحجار الأهرام الرمادية كالذهب ، أما وادى
النيل ومساكن القاهرة والقلعة والمقطم من وراء ذلك كله
فقد صبغت بدرجات من اللون القرمزى • وكان علينا أن
نسرع بالعودة الى مقرنا فسلطنا الطريق الذى جئنا منه •

(★) لم نفهم المعنى المقصود ، لمقدمناه كما هو - (المترجم) •

وفى حى شبرا وجدنا نشاطا صاخبا فثمة من يركبون خيولا عربية جميلة ، وثمة مركبات تسير فى صفوف رائعة غادية . انه منظر ينم عن الحيوية والنشاط والمرح لا يمدن رؤيته الا فى بلاد الجنوب . وذلك بعكس الحسا فى بلاد الشمال حيث الدورسكيات (عربات ذات عجلتين او اربعة تشيع فى بلاد أوربا خاصة روسيا ووسط أوربا) (٣٦) التى يرتعد سائقوها فى أمسيات شهر مايو . وثمة مركبات كبيرة وجميلة على نسق المركبات الأوروبية، لكن كل خدمها والعاملين عليها يرتدون جميعا الطرايبش . ويركب المسلمون الاثرياء والباشاوات وأهل الشرق الأدنى واليونانيون الأغنياء مركباتهم لتنسم نسائم المساء الباردة ، وقد سعدنا غاية السعادة بركوب (الحناطير) التى يقودها (عربية) شرقيون . وكان يجلس خلفها طواشية (أغوات) سود بملامحهم البغيضة القاسية ، وقد ارتدوا أزياء نصف أوروبية — وهم فى وضعهم هذا يسدون مسد الخدم أو جنود الحراسة .

وفى داخل هذه المركبات (الحناطير) توجد زوجات الموظفين الكبار وزوجات عدد من البشوات ، بل وحتى بعض الأميرات . وكلهن يرتدين الملابس البيض الشرقية وتبدو من خمهن البيض عيونهن السوداء المتألقة ، وملامحهن الجميلة وحواجبهن المزججة على هيئة أنصاف الأقواس ورموشهن الطويلة . أما الفقراء فيركبون الحمير والمركبات البائسة (الدورسكيات) .

وعند وصولنا لمقرنا ارتدينا ملابسنا سريما وذهبنا لقصر الخديو وتناولنا عشاء فاخرا كان قد دعى اليه النظار (الوزراء) وقناصل العموم Consuls-general ، وتم تقديمنا هناك لاخوة الخديو ، وكان القصر على النسق الأوربى أما الخدم فكانوا جميعا أوربيين فيما عدا أولئك الذين يقدمون القهوة والشيبوك .

وبعد العشاء ذهبنا مع الخديو الى حدائق الازبكيه
الواسعه التى تقع داخل المدينة حيث اقامت الجايه النمساوية
المجرية مهرجانا ترحيبيا بنا . فعلقت المصابيح فى الاشجار
وجرت الالعاب الناريه وايدى الراقصون والمغنون مهاراتهم
فى خيام معدة لهذا الغرض ، وصدحت الموسيقى العربيه ،
ولعب الحواة بالافاعي واخلوا النيران واستعرضنا الرواة
(التصاص) والزنوج والنوبيين وشاهدنا مسرح العرائس .
وباختصار فقد كان معرضا لكل الفنانين من هذه الطيفه
التى يغص بها الشرق .

لقد تم فتح بوابات الحديقته - لسوء الحظ - نى وقت
ياكر جدا فازدحمت ازدحاما شديدا فكان من المستحيل ان
نتجول فيها بحرية . لقد كنا نتعرض بشكل مستمر لاحصاك
الجموع بنا ، ولم نستطع الا بمساعدة بعض أهل دالماشيا
بشياهم الكاملة ، الذين شكلوا جدارا بشريا حولنا - ان
نصل الى البوابة ومن ثم لحافلاتنا التى تنتظرنا خارجها .
وسرعان ما وصلنا لمقر اقامتنا ، وبعد هذا اليوم الحافل كان
الخلود للراحة هو افضل تكريم لنا .

وفى صباح اليوم التالى سرنا خلال جانب كبير من
المدينة الأوربية (ذات الطابع الأوربى) فى طريقنا لمتحف
بولاق فى الطرف الجنوبي لجزيرة بولاق .

ويضم هذا المتحف احدى أثرى المجموعات من الآثار
المصرية وأكثرها شهرة ، وهو مبنى فسيح الأرجاء جيد
التنظيم يضم مالا يقدر بثمن من كنوز الآثار التى تعود
لقصر الفراعنة القديم ، ويتولى ادارته فرنسى خلف ماريت
باشا Mariette الأثرى الشهير الذى وافاه الأجل مؤخرا
ويشغل برجش باشا Brugsch عالم المصريات الشهير هو
الآخر منصبا فى هذا المتحف . وقد دلنا على أكثر قطع
المجموعات اثاره وأهميته . ووصف متحف بولاق

يتطلب استعدادا علميا فائقا. بالإضافة الى أن قطعه قد كانت موضع دراسة ووصف في كثير من الدراسات صدرت بالفعل . لقد تمحصنا كل شيء بعنايه في غرف المتحف وفي حديقته الصغيرة ، وجذبتني كثيرا بعض الممياوات من عصور المسيحية الاولى فلم اكن اظن - قبل رؤيتها - أن ممياوات من هذا النوع لازالت موجودة . لقد ذكرتني بتألقها ومظهرها ذي الزينات الثرية ووجوهها السوداء بالسيدات البيزنطيات Byzantine Madonnas (★) ويعبد طول تجسوال في المتحف غادرناه الى مقر اقامتنا . وما كدنا نرتدى ملابسنا الرسمية (ملابس البلاط) حتى ظهر الباشا الذي يتولى أمور المجلس العسكري Court Marshal تحت اشراف الخديو، ليرافقنا في زيارتنا الرسمية (زيارتنا التشريفية) لسموه . وركبنا مركبة فخمة مذهبة تجرها ستة خيول انجليزية ضخمة وجميلة ، وأحاط بمركبتنا الفرسان ، وتعلق بها من الخارج بعض الأشخاص ، وسارت المركبة في رحلة طويلة الى قصر الخديو (نائب السلطان Viceroy) وكان الطابع العام للحافلة ذا طعم خاص مميز ، فكان على العربية ذات التصميم الأوربي ما يشبه العبادة التي تطرح على الأذرع وعليها هلال ونجمة أما الحوذي والمتعلقون بالعربية من الخارج فكانوا يلبسون بذات غربية (أوربية) وان كانوا يضعون الطرايش على رؤوسهم ، وتقدم السائيس الموكب بزي شرقي كامل .

ووقف خلق كثير في الشوارع وراحوا يحملقون فينا يحققهم حب الاستطلاع . وفي الميدان المواجه للقصر كانت فرقة من المشاة في لباس أزرق فاتح يعزفون النشيد الوطني وتبع ذلك تهليل عربي لاهوار الاستحسان فشرعت جماعة اثر جماعة تجار (تصيح) وأفرادها يقدمون أسلحتهم . وانتظرنا الخديو بأبهته الكاملة كباشا تركي تحيط به

(★) ربما كان المقصود منور العذراء في الحضارة البيزنطية - (المترجم) .

حاشيته ، واتخذ كل منا مجلسه على مقعد فى القاعة الكبرى،
واتخذ المجلس شكل دائرة ، وسرعان ما قدمت القهوة
والشيبوكات المزخرفة زخرفات ثرية . وتقديم القهوة
والشيبوك ليس مجرد ممارسة لبعث السرور لكنه أيضا يشير
للإحترام والوقار ، على نحو ما يشير تدخين الغليون الطويل
(الكاليوميت) ، وبعد انتهاء الزيارة عدنا لعقد النزهة فى
حافلات ضخمة سارت فى موكب يتهادى .

وبعد عودتنا وصل الخديو سريعا ليرد لنا الزيارة .
وعندما غادر القلعة قمت أنا والدوق الكبير باستقبال كل
المقيمين النمساويين والمجريين وقناصل العموم وبعض من
أراد رؤيتنا ، ومن بين هؤلاء رئيس أساقفة الاسكندرية وهو
فرنسيسكانى من مواليد دلماشيا ، وكان منظره مريحا بسحنته
النبيلة ولحيته الطويلة . يا للبائس لقد غرق بعد ذلك
واستقر جثمانه فى المياه العميقة ! .

وبعد قضاء بضع ساعات فى أمور المراسم والتشريفات،
سمح لنا ، وخلصنا ملابسنا الرسمية وارتدينا ملابس الصيد،
لنستعد للصيد فى هليوبولس ، بعد تناولنا الطعام . وقد
صحبتنا فى رحلتنا هذه البارون ساورما ، وان سبقنا الى
مواقع الصيد أخوه والأمير تاكسس .

وكان علينا أن نسلك بعض الشوارع الا أننا سرعان
ما تجاوزنا أخيرا بعض المنازل المتداعية على حافة الصحراء
وفى الأراضى القاحلة . وقد رأينا عن شمائلنا مسلخا كبيرا
دل على اقترابنا منه تحليق كثير من النسور آكلة الجيف .
وعن أيامنا تجلى لنا منظر الصحراء الجميل وخلفها سلسلة
جبال المقطم المرتفعة . وكانت طواحين الهواء Wind-mills
والقبور التى اعتراها الخراب هى آخر المباني فى منطقة
الرمال .

والطريق محفوف بالأرض الزراعية خيمه الزراعة
ولكنه دائما أبدا قريب من الصحراء * وقطعنا الحدائق
الحصر للعباسية ونمصر توفيق يصموف أشجارها الطويلة
وبساتين البرتقال بها ، وبعد حوالي نصف الساعة وصلنا
لسجرة مريم tree of Mary التي تنتصب بين شجيرات
وحدائق خيمه * وتوقفنا لننظر الى شجرة الجميز Sycamore
الى اسنراحت تحتها العائلة المقدسة فيما تقول الرواية
(النص : فيما تقول الاسطورة Legend) * انها شجرة
عتيقة يلاحظ في فروعها عقد كما ان حجم جذعها وسماكة
لحائها يسترعيان الانتباه * لقد كانت رؤيتنا لهذه الشجرة
أفضل مكافأة للمشاق التي تكبدناها أثناء الزيارة * لقد
ذهبت جهودنا عبثا لاقتناص أى حيوان بمساعدة كلابنا فى
مزرعة قصب سكر صغيرة ، وأخفقنا كذلك فى مزرعة نخيل
(أشجار الأريكا Areca) (٣٧) *

وكان ما تبقى من الطريق يمتد على طول مطبات عالية
ضيقة ، وكان السير فيه أمرا مرهقا للحافلات الثقيلة لكننا
— على أية حال — اقتربنا من هدفنا لكن ببطء * وكانت
الأراضي الزراعية تمتد على جانبي الطريق تتخللها القنوات
ويزيد من بهائها أشجار الجميز ، وأشجار النخيل ذوات
الحفيف * وثمة بعض القرى العربية الرمادية مشيدة
مساكنها من الطين ولا تجمعات سكنية غير ذلك ، وعلى جانبي
الطريق وطواله يرى المرء الفلاحين يعملون فى الحقول *

والجاموس يدير السواقي ، والجمال تحمل الأحمال
وطيور أبى قردان (مالك الحزين أو البلشون Leron)
تمشى خلف الفلاحين المسكين بالمحاريث ، وسعدت أعيننا
برؤية طيور مختلفة ، ورأينا الى الجنوب الشرقى الصحراء
وجبالها العارية ويعد فترة بدت لنا مسلة هليوبولس الشهيرة
وقد أحاطت بها مروج خضر *

وهنا - فى هذه البقعة ذات الشهرة التاريخية ساسنيد من كلمات صديقى برجتش Brugsch باشا الوارده فى حساب أرسله لى يتحدث فيه هذا العالم بالمصريات عن هليوبولس . « عندما كان المسافر من منف Memphis فى العصور القديمة يعبر النيل ويدخل ما يسمى بالطريق المقدس الذى يؤدى فى الجانب الشرقى للنيل بعد بابليون (بالعرب من القاهرة القديمة) نحو الشمال ، فانه سرعان ما يرتى على البعد عددا من المسلات التى تشير الى أنه أصبح قريبا من مدينة الشمس ذات الشهرة العريضة بسبب قدمها وتاريخها . انها تقع على حافة الصحراء وتختلط رمالها البرتقالية بأثرية الحقول الداكنة . وقد تم انشاؤها كحرم لاله الضوء (النور) رع Ra الذى تشير اليه أقدم الكتابات على القبور الهرمية » .

« وتشير سجلات كل العصور اليه والى المدينة المجاورة باسم أنو Annu أقدم الأسماء وأكثرها شيوعا . وهى ذاتها أون On ، فى الكتاب المقدس ، التى قطنها رجل الدين بوتيفيرا Potiphera الذى قدم فرعون هذه الأيام اينته اسنا Asnath ليتزوجها وزيره يوسف . وبالإضافة لاسم المدينة الذى ذكرناه ، فان المدينة وكذلك المعبد حملا اسم (بى رع bi-Ra) وتعنى « مدينة رع اله الشمس » ومن هذا الاسم أتى المسمى الاغريقى « هليوبولس » . ويعزى التخطيط الأول وكذلك الموضع للمهاجرين العرب الذين قدموا من الشرق الى الدلتا واستقروا فى موقع مدينة هليوبولس . وهذا هو الاحتمال الأرجح » .

« وقد قام هؤلاء القادمون الجدد - عباد الشمس والنجوم - بترسيخ شعائر دينهم فى هذه البقعة ، وقد أثرت أفكارهم الرائدة فى الميثولوجيا المصرية وشكلت خطوط عقيدة محددة ، كان يتم الافصاح عنها فى مدارس الكهنة باعتبارها السر الأساسى فى تعاليمهم ، حتى الحتمية التى

من التاريخ المصرى عندما زار الفلاسفة الاغريق كافلاطون
ويودكسس Eudoxus المدينة * وقد نجح هؤلاء الفلاسفة
الاغريق انفسو الذكر بمشقة فى حث كهنة هليوبولس العلماء
على ان يشرحوا لهم بعض أهم العقائد ذات الأهمية الفلكية*
« والأصل العربى للمدينة يبدو - دون عناء - خاصة
فى عبادة طائر مكرس للشمس Was dedicated to the Sun
وخصص له « حرم » فى معبد اله الضوء (النور) Light god
وهذا الطائر العجيب كان يسمى العنقاء واسماه الاغريق
فونكس Phoenix ، والسجلات الأثرية مليئة برحلاتها
من اراضى البخور العربية الى هليوبولس عند اكتمال الدورة
الفلكية العظمى » *

« وهذا الطائر مألوف فى الآثار المصرية ، لكن السجلات
المقدسة قد جردت هذا الطائر تماما من كل ما يحيط به من
غموض (نزعته عنه طبيعته الغامضة) فلم يجد المؤلفون
الاغريق والرومان حرجا فى وصفه * ووفقا للكتابات
الهروغليفية فان طائر العنقاء الذى يسمى باللغة المصرية
القديمة بنو Benuu ينتمى الى جنس البيلشون Ardea (★)
الذى يتميز بريشه المتألق الذى يلعب كالذهب * واعتاد هذا
الطائر أن يهاجر من الشرق الى مصر وقت فيضان النيل *
ولم يرتبط الكهنة المصريون بين هذا الطائر والشمس فحسب
بل ربطوه أيضا بنجمة الفجر التى تبشر بالشرق * ويمكننا
أن نفترض دون أن نخدع أنفسنا أن مزارع أشجار البخور
(ذات الأصل العربى) التى وردت فى النقوش تعتبر مرجعا
دقيقا يشير الى احتراق العنقاء القديمة فى أعشاش من
أخشاب البخور » *

« وتعد هليوبولس وكل المنطقة التى تعد حاضرة
(عاصمة) لها احدى أقدم المواضع وأكثرها شهرة حتى فى
عصور مصر القديمة » *

(★) عن معجم الشهائى اصطلاحات العلوم الزراعية - (المترجم) *

« هليوبولس ، بالإضافة الى منف وطيبة ، تعد معلما من معالم التاريخ » انها تمثل المرحلة الباهرة في النضور التاريخي للحضارة المصرية ، تماما كما كانت منف هي المرحلة التالية لهذه الحضارة ، وكما كانت طيبة هي المرحلة الزاهرة التي منلت العظمة المصرية من القرن الثامن عشر الى القرن الثالث عشر قبل الحقبة المسيحية . وفي هليوبولس وجدنا المستوطنة الاولى للعرب الكوشيين kushite Arab في تجوالهم قادمين من الشرق . لقد امتلكوا بعد ذلك منطقة شرق الدلتا وأدخلوا عبادة الشمس ، واسسوا اول موطن ثابت لهم » .

« وخلال العصور منذ أيام أقدم الأسرات الحاشمة ازدانت هليوبولس ، بفضل ملوك مصر ، بالمعابد والتماثيل والمسلات التي لفتت كثرتها واحجامها أنظار الكتاب العرب حتى في العصور الوسطى . . أما البطالة — بتقافتهم الاغريقية — فقد تركوا مخلفات من سبقوهم لم يمسوها بسوء ، بل وعملوا كل ما في طاقتهم لحماية المعابد من كل ما يندسها ، وبدأ المستبدون الرومان في سرقة الأماكن المقدسة القديمة وتجريدها من آثارها ، فتم نقل مسلتين في عهد تيبيريوس Tiberus من هليوبولس الى الاسكندرية لقوضها أمام الكاسيريوم Caesareum أو معبد القيصر . وتم نقل مسلات أخرى الى روما والقسطنطينية لتشير كشهود غامضة لعصور ما قبل التاريخ » .

« ولم تبق الا مسلة واحدة في موضعها القديم ، وهي تلك الباقية شامخة الآن وسط الأرض الزراعية بالقرب من قرية Mulariya (؟) ويبلغ ارتفاعها من تحت سطح التربة من ٢٠ الى ٢٧ مترا . انها آخر ما تبقى من مدينة الشمس التي كانت عامرة ، كما أنها أقدم المسلات المعروفة والكتابات التي تغطي أحد جوانبها هي نفسها الكتابات التي تغطي كل جانب من جوانبها الأخرى » .

« وتشير هذه الكتابات إلى الملك أوسرتاسر الأول
 (الذى حكم فى منتصف القرن الثالث قبل
 الميلاد) باعتباره الأمر بإنشائها ، كما تشير أن إقامة هذا
 النصب (بضم النون وتشديدها) الضخم المتناغم المصنوع
 من الحجر النارى الأسوانى لتتزامن مع بداية فترة فلكية من
 ثلاثين عاما ، أو أحياء لذكرى حلولها . وكانت رأس هذه
 المسلة فيما مضى مغطاة برقائق نحاسية لامعة سرقها العرب
 فى العصور الوسطى . والبقعة التى تنتصب فيها المسلة
 تشير أيضا لموقع المدخل الرئيسى لأقدم حرم لاله الشمس .
 وثمة أسوار تشبه المتاريس لتحديد الحدود لا تزال بقاياها
 قائمة تدل فى الوقت نفسه على الزمام الذى كانت تشغله
 مجموعة من المعابد . وقد نلاحظ ما هو أكثر مستدلين
 بالشواهد التى قدمتها برديات القرن الثالث عشر قبل ميلاد
 المسيح (عليه السلام) أن هليوبولس كانت موقعا جيد
 التحصين ، وأنها كانت تمثل آخر حصن جنوبى من سلسلة
 خط الحصون الطويل الذى يمتد مارا ببيباستيس Bubastis
 (الآن تل بسطة Tell Bast) وتنيس Tanis (وهى زون)
 Zoan الواردة فى الكتاب المقدس وتسمى الآن سان San
 حتى ديوزبوليس Diospolis (الآن دمياط) الواقعة على
 البحر المتوسط ، تلك الحصون التى صممت لحماية حدود
 الدلتا ضد هجوم القبائل المتبربرة القادمة من الشرق » .

« والسبيل من القاهرة إلى هذه الآثار القديمة أصبح
 الآن محددًا بطريق مرتفع Causeway يمتد قرابة خمسة
 أميال (انجليزية) على طول حافة الصحراء ، وإن قطعه فى
 أكثر من مكان وجود مزارع وأراضى بناء . فعندما تغادر
 باب الحديد فى مدينة الخلفاء (القاهرة) ينفتح الطريق
 أمامك تحفه الأشجار مع الجانبين ، مغليا عينيك لتلقيا نظرة
 رحبة على الصحراء إلى سفح المقطم (يقال أنه من حجر جيرى

نميوليتى (Numulite Limestone) . وثمة جبل منعزل (لا يدخل ضمن السلسلة) هو الجبل الأحمر تميل حمرة للدكانة ، وهو من أحجار سيليكونية Silicious ، يقطعها الناس بكثرة ليجعلوها أحجار رخاء (جمع رحي ، بفتح الراء والحاء) أما فى الأزمنة القديمة فقد كانوا يجلبون منه الأحجار المتينة لصناعة التماثيل وغيرها من المباني التذكارية . . الخ ، فأحجار التمثالين الهائلين الشهيرين الخاصين بممنون Memnon فى الجانب الغربى لسهل طيبة قد جلبت من الجبل الأحمر * .

« وجهة اليمين يرى المرء قبور الخلفاء ومساجدهم تتوالى تباعا بغير انقطاع ، ومحطة ضخ شركة المياه القاهرية Cairene Water Company ، ومقابر حديثة للمسلمين والمقر الصحراوى لآخر نائب للسلطان Viceroy (★) عباس باشا ، وهو مخرب بكل ما فى الكلمة من معنى ، وثكنات للخيالة والمشاة ، وأخيرا خزانات ماء وبعض المباني الصغيرة التى لا أهمية لها . أما الى اليسار فتوجد مزارع حتى شبرا الخصبة ، أما الأكثر قربا من الطريق فهو قصر أم الخديو اسماعيل باشا ، ومساحات مخصصة للملاحطين الفلكيين والمختصين بالأرصاد الجوية * .

وثمة طريق ظليل تعطره الأزهار وتزينه بساتين الأعناب وحدائق الفاكهة على أحد الجانبين يؤدى - غير بعيد - الى فيلا الخديو الحالى بالقرب القريب من قرية القبة (؟) Kubbe

ويرى المرء الحقول الغناء على أرض الصحراء الزراعية . وتبدو وكأنها تدعو للحياة بفعل سحر غامض * ان هذه الصحراء المزروعة تؤكد ما قاله نابليون - وهو قول حق - أثناء اقامته فى مصر : « اذا أتت الصحراء للثيل عم الخراب ،

(★) لم نترجمها (خديو) هنا : لان هذا اللقب لم يمنح لاحد قبل الخديو اسماعيل -

(المترجم)

أما ان ذهب النيل للصحراء عم الرخام » . وفى الحقيقة
فان رى الصحراء ريا دائما قد أدى الى ازدهار الخضرة
ازدهارا ثريا قلما يوجد فى أى مكان آخر .

وبعد أن تكون قد استدرت أمام قصر توفيق باشا ،
يتجلى لك سهل زراعى عريض خلف مزرعة أشجار زيتون .
وهنا ، فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ حقق الجنرال كليبر
بقيادته لعشرة الاف فرنسى نصرا باهرا على ٦٠٠٠ من
المصريين والأتراك .

وخلف قرية المطرية ، الى يسار الطريق - ترى شجرة
مريم « التى يترده الناس عليها للزيارة كثيرا - وهى شجرة
جميز لا يزيد عمرها عن مائتى سنة (أما الشجرة السابقة
عليها فقد انتهت سنة ١٦٦٥) ويقال ان مريم وطفلها قد
استراحا تحتها عند هجرتهم لمصر . وتروى الأرض المحيطة
بالشجرة من الآبار ، وبعد ذلك أسماها العرب عين شمس
Heliopolis Ain Sherus (*) .

وعلى بعد قليل من الحديقة الى الداخل فى الأرض
الصحراوية توجد مزرعة نعام أسستها - مؤخرا - شركة
فرنسية تحت اشراف رجل سويسرى هو السيد وتر Wetter
ويتم تفقيس البيض بتعريضه لحرارة صناعية وتلقى
الطيور الناتجة عناية فائقة . ومنذ أربع سنوات خلّت
أفرخت هذه الطيور ، وكانت آباؤها قد جلبت من السودان
والحبشة . وفى مارس ١٨٨١ كان اجمالى عدد هذه الطيور
ستين طائرا بين صغير وكبير وأنثى وذكر .

وعلى بعد نصف فرسخ من هذه المزرعة تقع خرائب
هليوبولس التى وصفناها آنفا . وفى هذا المكان المنعزل
تقف المسلة شامخة وحيدة شاهدة على أيام مفرقة فى القدم
تحبى - من بعد - مسافر هذه الأيام ، ومنتظرة ساعة

(*) وهو خطأ مطبعى بالتأكيد والمصحح : Ain-Shma : والدليل المقابل الانجليزى
- (المترجم) -

سقوطها واندثارها ، فإذا ما اندثرت ، اندثر باندثارها
آخر شاهد على أرض مصر يدل على أنه كانت هنا مدينة
الشمس الزاهرة • وليس أمامنا إلا أن نتوقع أن تتبع المسلات
الأخرى فتنقل الى مكان ما فى أوروبا أو أمريكا » .

دعونا الآن نعد لخبراتنا الشخصية بعد هذا العرض
البليغ الذى قدمه برجش باشا Brugsch .

غير بعيد من المسلة يوجد بستان يمتلكه الخديو عامر
بأشجار البرتقال وبينها ممرات تزينها الورود والنباتات
الأفريقية • ولا تزيد مساحة الحديقة عن كثير من الحدائق
الملحقة بالمساكن الريفية فى أوروبا ، ويحيط بها سور طينى ،
وتقع بالقرب من قرية وسط أرض زراعية •

وحدثنا البارون ساورما لنسعد للصيد ، وبينما كنا
ندخل الحديقة (حديقة الخديو انثة الذكر) دخلت لى فكرة
أننا سنجد هنا فى الغالب الأعم حمائم النخيل الأفريقية او
بعض طيور الجنوب الصغيرة ، لكننا سرعان ما تعلمنا شيئاً
مخالفاً لما خطر ببالى • واختبأ عدد من الرجال تحت أشجار
البرتقال المحملة بالفاكهة بالقرب من الطريق الرئيسية التى
تقطع الحديقة ، أما أنا فقد كمننت بالقرب من السور •

وأطلق ساورما كلبين ممتازين من نوع الدشهند وتابعت
باهتمام بالغ ميدان الصيد • وبعد دقائق قليلة سمعت
الطلقات ، أعقبها فاصل قصير من السكون ، لكن الكلاب
سرعان ما نبحت فى الجانب المقابل ، فتركت موقعى لأقترب
وأقترب ، وفجأة سمعت حركة حيوان يأتى مسرعاً من بين
الأشجار يقترب فى اتجاهى ، وفى لحظة أصبح ابن أوى
يقفز قفزة كاملة تحت السور ، فأطلقت عليه فهوى ،
فخلصت بفنيمتى بمشقة من الكلاب التى تبعتها فى الطريق

الضييق الملاصق للسور . لقد كان من نوع ابن آوى الأفريقى
الصميم . أحمر مشربا بصفرة ، نحىلا ، طويل السيقان
مدنب الأذنين . وكان هويوز Hoyas أحد رفاقي - محظوظا
جدا فقد ضمن لنفسه ذئبة من النسل الأفريقى المعروف
علميا باسم الذئب الشائع Canis Lupaster .

وظهر ذئب آخر بينما كنا نصطاد مرة أخرى فى الحديقة
بمساعدة بعض أهل البلاد . لقد سمعت صوت تسلسله بين
الأشجار بل ان مساعد الصيد التابع لى رآه ، الا أن الحيوان
الحذر استطاع الفرار بالقفز فوق السور دون أن يلحقه
أذى . ورأينا أيضا اثنين من طيور الشنقب (٣٨) (بتشديد
السين وضمها وتسكين النون وضم القاف) ولم تصبهما
طلقاتنا . وحلقت الكراكي (طيور الفرنوق) عاليا .
وانتشرت طيور مختلفة أنواعها بين أشجار البرتقال
المورقة .

وغادرنا الحديقة بعد فترة صيد قصيرة - لجنبها ناهية -
واتخذنا طريقنا لمصر فامتنا . لقد غربت الشمس وزحفت
الظلمة وظهر الشفق صابغا الفرب بلون احمر . لقد كان
الطريق غير ملائم بما فيه الكفاية للسير فيه ليلا ، خاصة أنه
طريق خطر بالنهار عند مجازه الضيق المرتفع ، لذا فقد
رأينا أن نترك القناة (الترعة) التى تمر بالأراضى الزراعية
وأن نتجه بخط مستقيم نحو الصحراء ، وسارت الأمور فى
البداية سيرا طيبا ، لكن قوة الخيول بدأت تتلاشى فراحنا
تسحب الحافلات الثقيلة ببطء كان يزداد بالتدريج فى
الرمال العميقة ، وبهذه الطريقة كان يمكن أن نستغرق
عدة ساعات للوصول للقاهرة لذا فقد عدنا للأرض الصلبة
(الزراعية) مرة أخرى بمساعدة حملة المشاعل .

وتجاوزنا حديقة قلعة (٩) kub Castle وكانت المتفافيش
تحلق بين النخيل ذات الحضيف وأشجار الجميز الغليظة وكانت

الروائح العطرية تنبعث من بساطين البرتقال • انها عطور
مزارع الشرق المسكرة • وامتلات السماء بنجوم لا حصر لها ،
وأنعش الهواء الدافئ • الناعم وجوه الأوربيين البائسين •
لقد كانت ليلة أفريقية حقيقية فى الغاية من الروعة ،
اذ ينبغى على المرء أن يدرك السحر اللذيد لهذه البلاد السعيدة
ليفهم جاذبيتها التى تفوق الوصف وفتنتها التى لا حدود لها
والشوق الشديد لكل من عاش فيها ليعود اليها • ففى هذه
البلاد فقط ولا سواها يمكن أن يكون مهد البشرية حيث
الشرق المزهر الباسم ، والصيف الواضح غير الكئيب ،
لا فى بلاد الشمال الباردة الجرداء العابسة •

كان الطريق جيدا من kub الى القاهرة فوصلنا
سريعا لقصر النزهة وكان عشاؤنا جاهزا وكذلك تجهيزات
قضاء الليل استعدادا لليوم التالى •

وبدأنا فى صباح اليوم الثانى والعشرين مع البارون
ساورما فعملتنا الحافلات عبر الأحياء الأوربية ثم على طوال
الموسكى حتى انتهى الطريق الذى يمكن أن تسلكه الحافلات
عند آخر منزل ، وبعدها بدأت تظهر الخرائب والقبور
القديمة • والمنطقة الواقعة بين القاهرة وسفوح المقطم -
وهى منطقة صحراوية صخرية واسعة مليئة بما يمكن
تسميته بمدينة المساجد الجنائزية القديمة بالاضافة الى
قبور مختلفة الأشكال للمسلمين ، وثمة مقابر شبيهة عند
الجانب البعيد للقلعة ، وان كانت مقابر المماليك أقل قيمة
بالنسبة للزائر •

ومن بين كثير من المساجد الصغيرة والكبيرة الموجودة بين
قبور الخلفاء ، يعتبر جامع قايدباى kait-Bey هو الأبهى
عمارة وقد زينت قبته زخارف ثرية •

وفى حرم هذا المسجد يوجد مكعبان حجريان على كل
منهما أثر قدم من قدمى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ،
كان مؤسس المسجد قايدباى قد جلبهما - كما يقال - من
مكة (المكرمة) .

ويرى المرم اذا ما تجول راكبا فى مدينة القبور هذه
ما هو جدير بالنظر ، فامامنا توجد المنحدرات الصخرية
الوقور ، والى اليمين توجد القلعة المشيدة من الصخور
وفوقها مئذنتها الجميلة السامقة ، وحولنا قبور مختلفة
أشكالها ، وشواهد قبور ومساجد ، وكلها قد تساقطت بعض
أجزائها وضربت بها رمال الصحراء . وترتفع بينها تلال
صغيرات فوقها مبان حجرية عربية فوقها ما يشبه الأبراج ،
والجانب المأسوى للصورة وجود علامات كثيرة تشير الى أن
الكلاب وأندئاب والضباع وحيوانات ابن آوى قد حفرت قبور
الموتى المسلمين ليلا .

ووصلنا سريما الى المحجر The Stone Quarries ، بجوانبه
الشاهق ارتفاعها وكتله الحجرية الضخمة المتناثرة
هنا وهناك . وتركنا حميرنا هنا وتسلقنا بشق الأنفس
صاعدين ممرا ضيقا بين الأحجار من ناحية وجرف (منحدر)
الجبل من ناحية أخرى حتى وصلنا لمنتصف ارتفاع الجبل .
ان الرياضى المحترف يحتاج لتفكير عميق لتسلق بعض المواضع
فالصخور الملساء سواء الرمادية التى تعترىها صفرة أو
البنية الداكنة ، يحتاج تسلقها لحذق خاص ومهارة فائقة
والا تعرض متسلقها لكارثة .

ووجدنا عربيا الى جوار حمار ميت ، فى شعب ضيق
غير بعيد عن أحد حواف الجبل التى تشبه القلعة .

وهنا شيد البارون ساورما جدارا (سورا) أمام مدخل
مغارة ، وتسلفت أنا وعمى وخادم ساورما وعثمان النوبى

الحاذق والمشرف على الصيد التابع لى - تسلقنا جميعا على أربع (على اليدين والقدمين) فوق حافة ضيقة وهبطنا لنكون فى مكمن غير مريح ولم يعتد أحد الكمون فيه ، وعاد البارون والعرب الى المحجر ليتابعوا القنصر عن بعد ، واتضح ان المسافة مناسبة فطلقة يسيرة نطلقها تجاه قاع الشعب كافية لاصابة هدفها . ان نظرتنا للموقع من مكان مرتفع تؤكد ذلك .

لقد أصبح الجو ملبدا وتساقط بعض المطر ، وهذا أمر نادر الحدوث فالناس يقولون ان الأمطار لا تسقط فى القاهرة الا سبع مرات فى السنة ، لسوء الحظ فقد كانت احدى هذه المرات السبع من نصيبنا مع اننا كنا نريد جوا صحوا .

ومضى وقت طويل ولم يظهر ما نقتنصه ، ووصلت الى آذاننا أصوات الأبواق والصرخات القادمة من القلعة ، وكان الهواء ثقيلًا ، والمكان ضيقًا ، فلم نكن قادرين على الحركة ، مما جعلنا لا نحس بالارتياح . وأخيرا هبط زوج من الغربان وبعض الحشرات الباحثات عن فرائس لافطارها ، كما رأينا نسرا من نسور الجيف برأسه الأصلع .

ودفعنى الملل وطول الانتظار الى أن أنصح عمى - الذى لم يكن قد أطلق النار أبدا على أى من هذه النسور - أن يطلق النار ، ولم يكن قولى بأسرع من فعله ، وهبطت سريعا الى البقعة بمجرد انقشاع الدخان وتوسلت الى عمى أن ينتظر فترة . فالشمس حامية وهبطت بالغنيمة المتواضعة الى المحجر . وعند وصولي وجدت أنا والبارون ساورما موقعا مناسب للمراقبة . وتوالت الأحداث بينما كنت أمسك بتلسكوبى .

لقد ظهرت نسور ضخمة فى البداية من النوع المعروف باسم *Vultur fulvus* ، وحدث هذا فى غضون ربع

ساعة من وقوفنا فى موقعنا الجديد . لقد دارت هذه النسور حول قمة الجبل وهى تضرب الهواء بأجنحتها ضربا رقيقا ، لقد ظهرت هذه النسور الواحد فى اثر الآخر وسرعان ما تجمع منها ستون .

لقد أزفت اللحظة المثيرة عندما كف النسر الأول بجناحيه عن التحليق وهبط بين الصخور ، فحدثت النسور الأخرى حذوه ، فهبطوا ككتل الحجارة نسرا اثر نسر ، وبمجرد أن هبط النسر الأخير رأينا دخانا يرتفع من أعلى الموقع فتشتت شمل مجموعة النسور اثر الطلقة الأولى .

واستطعت رؤية نسر أصيب بجرح بالغ يتدحرج بين الصخور بمساعدة تلسكوبى ، كما رأيت عثمان يسرع للامساك به بينما لم تغادر النسور الأخرى الموقع وانما راحت تدور حوله ، وجريت بأقصى ما أستطيع لأصعد الممر الصخرى الى المكمن . لقد استطاع الدوق الكبير قتل خمسة نسور هائلة بطلقة واحدة فى لحظة واحدة بينما كانت رءوسها جميعا تمتد لنهش جيفة . ووضعت هذه الغنيمة العظيمة فى مكان بين الصخور .

ويمكنك أن تتصور مدى الرائحة النعنة المنبعثة من هذا المكان الضيق ، وظلت النسور تحلق طوال نصف ساعة أخرى حول حافة المنحدر الصخرى ، لكنها لم تتمكن من الانقضاض على أية جيفة ، وبعد ذلك انسلت جميعا نسرا اثر نسر عائده الى الامتداد الجبلى . ونحن أيضا اتخذنا طريقنا هابطين ، وسبقنا عثمان وكان مساعد القنص التابع لى ينتظر فى الوادى ، ووضع عبء العمل الشاق والمرهق على كاهلى الدوق الكبير ، فحملنا غنيمتنا الثقيلة والشمينة على ظهورنا وهبطنا الممر شديد الانحدار .

ولما وصلنا للمعجر كان الوقت عصرا واستفرقت عودة
الآخرين التابعين لمجموعتنا وقتا طويلا فقد كانوا قد وضعوا
ما اصطادوه بالقرب من مسجد مخرب وبعض المقابر على
هضبة جبل المقطم ، وكان ما اقتنصوه عبارة عن أحد نسور
الجيف وبعض الحشرات . ولم يكن من نصيبهم اصطياح
نسر كبير .

وركبنا عائدين خلال مقابر الخلفاء (٩) الى أقرب المساكن
للمدينة حيث كانت حافلاتنا فى انتظارنا ، واتجاهنا فى
خط مباشر للموسكى أخذ وقتا طويلا لأنه فى ساعات المساء
الأولى تزدهم الطرقات بالغاندين والرائحين فى هذه الشوارع
ذات الطابع العربى الخالص .

وعند أقصى طرف الحى الشرقى عند بداية حى الموسكى
بالقرب من المدينة الأوربية يوجد معمل بارفيس Parvis
المشهور وهو من مواطنى تريست Trieste . هذا الرجل
الماهر مهارة غير معتادة ينتج كل المصنوعات الشرقية المناسبة
بشكل خاص للغرف . وقدمت لى الجالية النمساوية المجرية
هنا كل الأدوات الخاصة بغرفة التدخين ذات الطابع الشرقى
الصميم . لذا فقد توقفنا فى طريق عودتنا عند بارفيس
Parvis لنطالع هذه الأدوات الجذابة المتكاملة . وبعد فترة
يسيرة عدنا الى قصر النزهة فتناولنا عشاءنا وخذلنا
للراحة مبكرا .

وكان علينا أن نغادر القاهرة فى اليوم التالى لتذهب
كفريق صيد الى مديرية الفيوم ، فاذا ما أتممنا رحلتنا اليها
صعدنا فى النيل فى رحلة للصعيد .

الفصل الثالث

رحلة الى (أبو سكر) فى الفيوم - الحمام -
الخط الحديدى - الخط الحديدى الفرعى -
البربر - قصب السكر - ليس فى الشرق عمل
يتم بيسر وسهولة - البدو - العمال الزراعيون -
الطيور - الذئاب - الحياة الحيوانية البرية عامة
- بحيرة قارون - حصيلة الصيد - رمال الصحراء
- وصف الفيوم - كثرة الذئاب - ركوب الباخرة
النيلية للتوجه الى أسيوط - رسوم الفنان
المصاحب - تعليقات المترجم *

لقد تجمعت المجموعة المسافرة فى بكور صباح اليوم
الثالث والعشرين من شهر فبراير فى محطة القطار المتجه
للجنوب (خط الصعيد) الذى لا يؤدى الى أسيوط فحسب
وانما يخرج منه خط فرعى يؤدى الى مديرية الفيوم *

وقد تعلق الهز زمرمان Herr Zimmerman مرة أخرى
فاستقل القطار معنا ليصحبنا الى المحطة الأخيرة (أبو سكر)
أما الأمير تاكسيس Taxis فكان قد سافر قبلنا بيوم ومعه
المترجم الى بركة قارون Birket el-Karun (بحيرة قارون)
لينصب خيامنا ويجرى الاستعدادات اللازمة لأيام الصيد *

لقد كان مسار الخط الحديدى فى البداية بجوار شريط
ضيق من الأرض المزروعة ، التى تمتد بين الشاطئ الغربى

للنيل والصحراء • ان الطبيعة الكثيفة للزراعة المصرية تتجلى بوضوح هنا فثمة زروع كثيرة فى مساحة ضيقة • وتعاقبت قرى الفلاحين البسيطة وغابات النخيل ، ويلاحظ أن القرى هنا أكبر من قرى مصر الدنيا (الدلتا) • وقد استرعى نظرنا أبراج الحمام المبنية على الطراز العربى ، ويقدم المصريون للحمام هذا المأوى كما يقدمون له الحماية لا لشيء الا لما ينتجه هذا الحمام من سماء طبيعى (زبل الحمام) وأحيانا يستفيدون من بيضه وزغبه (ريشه) وليس للحمام المصرى طبيعة داجنة بآية حال فهو حمام جبلى قاس بالفعل سواء من حيث ألوانه أو أحجامه كما انه غير ذلول أبدا •

وغالبا ما كان الخط الحديدى يقترب من النيل ، وهو دائما - أى الخط الحديدى - يقع على الضفة الغربية للنهر (الى اليسار منا) (١) أما الى الشرق فالجبال الصحراوية تقترب من المجرى ، أما الى الغرب فتقع الصحراء الليبية (صحراء مصر الغربية) التى تبدو كأمواج من الرمال المتحركة لكنها مسطحة بشكل عام •

وتجاوز القطار الأهرامات ، وقد رأيناها بوضوح ، وفى البداية ظهرت رموس الجيزة الرمادية (رموس الأهرامات) أكثر الآثار المصرية مدعاة للفخر ، ثم تلا ذلك ظهور أعضاء الأسرة الأصغر ممثلة فى أهرام ستارة • لقد تعودنا نحن الأوروبيين أن نرى نخلة واحدة ، أو نخلة تقف منعزلة بمفردها فى دفيئة (مكان لانبثاق الأشجار التى تحتاج لحرارة) (٢) أو على الساحل الأوروبى الجنوبى ، أما هنا فان غابات النخيل بحقيفها وكثافتها تعد رمزا صادقا لأفريقيا المشمسة •

وفى الساعة العاشرة صباحا دار قطارنا تاركا الخط الحديدي الرئيسى الذى يتبع مجرى النيل حتى أسىوط ، لينتقل الى الخط الحديدي الفرعى المتجه غربا بين صحراء جدياء قاحلة • ان الرحلة فى هذه المنطقة الجرداء رائعة جدا فى تفردھا واثارتھا للدهشة •

لقد انتقلنا فى لحظات تاركين النيل العامر والخضرة الياضنة المشمرة التى أشبعت ربا لا مثيل له الا فى هذه القارة السوداء (المظلمة) Dark Continent الى صحراء ساكنة لا حياة فيها •

ويخطىء الذين يتصورون الصحراء مكانا مسطحا مستويا ككثير من مستنقعات الأدغال المجرية أو سبخات شمال المانيا فالصحراء منظر الأمواج كما أن بها مناظر متباينة ، وغالبا ما يكون فيها تموجات كثيرة كما تقطعها الوديان وتجللها التلال ، وغالبا ما تكون هذه التلال فرادى لا تشكل سلاسل ، ولا أثر لحياة نباتية على الإطلاق وليس بها من الحياة الحيوانية الا الشئ القليل عند أطرافها القصية حيث استطاعت بعض الحيوانات التكيف مع ظروف الجفاف •

ومع هذا فالصحراء تبدو للرحالة جليلة جميلة ، انها صورة للراحة كما أنها ثرية بألوانها ، لقد وهجتها شمس أفريقيا المحرقة • أما تباين الألوان فيرجع لاختلاف أنواع الصخور التى تتخذ فى الغابات لونا أصفر شاحبا ثم تراها أحيانا داكنة ، وأحيانا أخرى تراها منقطة بسواد على أرضية بيضاء ، كما أن هناك صخورا مخططة • ان اختلاف الصخور يعطى المشاهد خليطا سحريا من الألوان •

ولم نر أى مظهر من مظاهر الحياة ونحن ننظر من القطار الذى يقطع هذه القياض الجرداء • الا أننا شاهدنا

بعض البدو فى عبااءات بيض (برانس burnous) يحملون
بنادق طويلة قادمين من وراء التل * انهم بربر خلص
يقطنون هذا الجزء من الصحراء (٣) * انهم أبناء الأرض
الأحرار انهم أسعد الرجال لا يخضعون لحكم Uncontrolled
شجعان ، سلايون نهابون ، متمردون الى أقصى درجة *
وتتباين القبائل المختلفة تباينا كبيرا فى مظهرها وازيائها
بل وفى صفاتها المميزة وفى أسلحتها ، لكن مصر جذبت
بسبب جمالها القبائل الصحراوية القادمة مما وراء مراكش
Morocco ، والقادمة من آسيا أيضا ، فجنوب غرب آسيا
يقطنه أيضا العرب الساميون Semitic Arabs ، وعادوت
الخنزرة فصافحت أعيننا مرة أخرى فى حوالى منتصف النهار ،
فظهرت الزروع كبقعة خضراء وسط الرمال الصفراء * انها
واحة الفيوم الكبيرة * انها - بكل وضوح - أرض خصبة
قد أحسن أهلها زراعتها ، تتخذ شكل الدائرة وتحيطها
الصحراء من كل الجهات (٤) * وتشكل بحيرة قارون الكبيرة
حدها الغربى ، كما أنها - أى البحيرة - تفصل بين الأرض
الزراعية من ناحية والصحراء من ناحية أخرى * لقد مررنا
خلال جزء يسير من هذه الواحة الخصبة كان مزروعا بقصب
السكر ووصلنا الى محطة (أبو سكر) Abuskar * انها محطة
مخرية لا تستحق أن تكون محطة حتى فى وسط أفريقيا ،
وتشكل مباني المحطة مع مصنع السكر الموجود هنا مستوطنة
(قرية) صغيرة *

ولا يذهب بك الخيال الى الظن بأن مصنع السكر الذى
نشير اليه هنا يعد مصنعا كبيرا على النمط الأوربى كمصانع
السكر التى نراها فى بوهيميا Bohemia * ان مصنع
الفيوم هذا مجرد مبنى بسيط يعثريه الاهمال الى حد ما ،
لكنه يستفيد من قربه من مزارع القصب التى تنتج كميات
كبيرة ، ولا يشير لكونه مصنعا الا بعض المداخل المنخفضة *

وتناولنا طعام الافطار بسرعة فى غرفة الانتظار بالمحطة - لقد كانت بدائية بل دون البدائية ، ثم أسرعنا املا على ان تكون هافلتنا جاهزة ، فليس فى الشرق عمل سهل فكل شخص يضغط طلبا للخدمات ، ويضغط (يفت) على حصانه وحماره بكل ما يمتلكه من عنف ، وكل شخص يدفع الآخر لينجيه جانبا والكل يصرخ والكل يومىء ، ويضطرب الغريب البائس فى خاتمة المطاف لالقاء نفسه بين ذراعى أول قادم (٥) - فبمعونة بعض العساكر وبالاستعانة ببعضينا الغليظة التى تستحق الشكر استطعنا أن نحول الفوضى وعدم الوضوح الى أمر قابل للتنفيذ .

وامتطى كل واحد منا حصانا وكذلك خدمنا ، وأكثر من هذا فقد كان علينا أن نرتبط بحمالين ليحملوا كلابنا من نسوع دشهند dachshunds ، وهو أمر لا مفر منه فى هذه المنطقة ، وقسمنا الكلاب لمجموعات منتظمة ، فأصبح فى حوزة البارون ساورما عشرة من هذه الحيوانات الشجاعة القوية ، أما نحن فكان معنا أربعة منها . وبيع بعض المشقة أمكن ابعاد الناس المزدحمين حولنا حبا فى الاستطلاع ، وتم منعهم من متابعتنا .

وقد ركب البدو القناصون الذين اضطرونا لاصطحابهم وجعلوا خيولهم تسبقنا - انهم من قبيلة صغيرة نائية المضارب يلبسون ثيابا بيضاء ، وان شئت الصدق - فان برانسهم قد تحولت لفرط قذارتها الى اللون الأصفر وكان معهم بنادق طويلة وخناجر bent knives وأكياس لحفظ التوباكو، وكل هذه الأشياء بالاضافة لأكياس البارود (أجربة البارود) والرصاص ، قد ربطوها باحكام حول خواصرهم ، وكانت سيقانهم الطويلة عارية كما كانوا يلبسون أخفافا (جمع خف

بضم الخاء) فى أقدامهم * وهم هنا - كما هم فى كل مكان
بشمال إفريقيا - ليسوا أكثر من متسولين بائسين *
فمظهرهم الخارجى غير طيب وملابسهم رثة ، بل وهم
لا يغطون رؤوسهم بعمائم وإنما بطواق ضيقة بنية اللون
كطواقى الفلاحين ، بل وحتى الشباب منهم كانوا حاسرى
الرؤوس *

إن طبائع هؤلاء البدو متيرة للاهتمام * إنهم بربر أصلاء
من الصحراء الليبية ، وألوانهم داكنة ومظهرهم الخارجى
يوحى بصلاية أشد مما عليه سكان النيل الأدنى (الدلتا)
وغالبيتهم طوال القامة ويتسمون بالنحول ، وإن كانت ملابسهم
أقل نبلا وجمالا من ملابس القبائل البدوية فى الشمال *
فالدماغ الزنجية واضحة فيهم ، وبعضهم أسود تماما وله شعر
مفلفل قد يحسبهم المرء من البربر Moors (؟) * وقد تم
استرقاقهم (سرقتهم) عندما كانوا أطفالا من موطنهم فى
داخل إفريقيا ثم حصلوا على حريتهم من القبيلة التى نشأوا
فيها (تم عتقهم) ، لكنهم ظلوا محتفظين بلغة البدو وزيهم
وعاداتهم ونسوا أصولهم تماما ، بل لقد نسوا حتى البلاد التى
قدموا منها * وقد رأيت لهم شبيها فى كل القبائل التى
أتيت لى فرصة معرفتها سواء فى أفريقيا أو آسيا (٦) *

وحتى العمال الزراعيون حول (أبو بكر) لفتوا نظرى،
من حيث كونهم من نوع مختلف عن الفلاحين الذين يسكنون
وادي النيل الأدنى فهم أضخم حجما وأشد دكنة وأكثر شبها
بالبدو الموجودين فى الواحة (الفيوم) التى تطوقها
الصحراء ، والذين يتصلون بهم * لذا - فمن الواضح - أن
هؤلاء العمال الزراعيين يمثلون جنسا مغلطا * ويلاحظ
المرء بوضوح أيضا وجود عدد كبير من البربر بينهم *

وسرعان ما بدأنا الصيد ، فى حديقة مجاورة للمصنع
الآنف ذكره وجدنا طائر الوروار (٧) bee-eater

(الوروار أو الخضيراء أو الخضصار) وهو طائر أزرق الوجه ،
ولونه أخضر وان كان له خطوط طويلة زرقاء على جناحيه
ورأسه •

ويرجع أصل هذا الطائر الى المناطق الداخلية فى افريقيا
لأنه منتشر فى صعيد مصر ، ولا يصل فى تحليفه للمهارة
التي تبدو فى موقع شمالى لا يتلاءم معه • وكان حول الحقل
طيور ابو طيط (البيويت) وهى طيور ضخمة الحجم
وجذابة كما أنها طيور أصيلة • كما كانت هناك أسراب من
البليشون (طيور مالك الحزين) ، وهنا - كما فى أى
مكان آخر بأفريقيا - تتجمع الحياة الحيوانية فى المناطق
الخصبة والتي يتوفر فيها الماء • لقد كانت البشائر تشير
الى أننا سنستمتع بأيام صيد طيبة •

وسرعان ما سمعت أصوات طليقاتنا وتساقطت قنائصنا
من الطيور التي أحضرها العرب المصاحبون لنا من الحقول
المبتلة •

واستمرت القافلة فى طريقها بنحولها وخدمها وأمتعتها،
الا أننا جميعا تركنا ما كنا مشغولين به عندما دعانا البارون
ساورما اليه ، فقد كان قد اكتشف حقل قصب سكر كبيرا
وامتاز عبوره بصحبة الكلاب • وكانت المشكلة الوحيدة
التي واجهتنا هى التخلص من العمال الكثيرين حتى لا تصيب
طليقاتنا أحدا منهم • وكان على كل السادة أن يتخذوا مواقعهم
حول الحقل ، واقترح ساورما أن أدخل الحقل ومضى مسئول
الصيد My huntsman وقطيع من أربعة عشر كلبسا •
لقد كان القصب فى ارتفاع قمة الرجل • وقبل أن نتخذ لنا
أماكن سمنا الكلاب تنبح نباحا موحيا وأعقب ذلك صيوت
طليقتين • وجرى واحد من جماعتنا مسرعا للأمام ، أما أن
يكون أول من يصل الى حافة الحقل البعيد ، وبينما كان

لا يزال يجرى حتى احضرت الكلاب ذئبا كبيرا كان على بعد خطوات منه في حقل مكشوف * ولسوء الحظ فقد انحسرت رصاصة في بندقية كانت مصوبة نحو طيور الزقزاق (٩) والبلشون (مالك الحزين) ، وأسرع ايسسجرم Iscgrimm وترك الحقل المكشوف الى أقرب سائر *

وفي وقت قصير كان نباح الكلاب يدوي في كل أرجاء حقل قصب السكر ، ودوت الطلقات ، لقد اطلق اثنين من مسدسولى الصيد حلقتي صوب الذئب دون جدوى فقد كانت هذه الحيوانات حذرة فهي لا تكاد تغادر القصب حتى ترتد عائدة اليه وتختفى داخله ، فاطلقنا كثيرا من الطلقات تجاه هذه الذئاب وهي تندفع داخل القصب ، وسرعان ما دلنا نباح الكلاب ، وبعض شرائط من دم على أن الطلقات قد أصابت هدفا فغادر عدد من الرجال مواقعهم في حماسة وراحوا يطاردون القنصاء ، وان كان من الصعب أن يرى المسرع لمسافة خطوتين بين أعواد القصب الكثيفة ، فذهبت - لذلك - جهودهم سدى *

وخلال هذه الرياضة الوحشية والتي لم تكن منظامة على نحو ما ، لم أطلق طلقة واحدة * وبعد نصف ساعة من الانتظار كان معظم الرجال قد غادروا بالنارل مواهبهم ليكونوا بالقرب من الكلاب النابحة ، اكتشفت مدقا (طريقا ضيقا) بين مزرعة القصب *

وأسرعت على حلول هذا المدق (١٠) (الطريق الضيق في حقل القصب) حيث كانت هناك قناة صغيرة (مجرى) للمرى وأتيح لي ممر لا يزيد عرضه عن ياردة ، ووجدت هنا مكانا يسمح لي بإطلاق النار فوقفت منتظرا تقدم العسرا ، وتقدمت الكلاب ببطء لأن الذئب الجريح قد استدار وهو يعمى في أثرها ، ولما اقترب الذئب منعتنى الكلاب من إطلاق النار خوفا من اصابتها * لقد سمعت بوضوح زمجرة الذئب

محفظة بنجاح الكلاب . وفى غضون لحظات توقف صوت
السرنه والزمنبره والنباح ، رغم السخون . لقد استمت
الكلاب بالذئب باصرار ، ولا يستطيع المرم أن يقرر ما اذا
كان هو الذئب الجريح . وبعد لحظات أخرى سمعت نباح
مجدوده كلاب أخرى فادما من الجانب الآخر المقابل للحقل
وهذا يعنى أن عملية صيد تجرى من جديد . واندفع
الصائدون مرة أخرى داخل الحقل فى اتجاهى ، وكان يمكننى
أن استنتج ان الكلاب كانت فى اثر ذئب جريح ، ولما أصبحت
الكلاب على بعد مائة خطوة منى كان يمكننى أن استنتج أنها
فى وضع حرج ، وبينما كنت مستغرقا فى هذا التفكير سمعت
— على حين غرة — حفيفا خفيفا بالقرب منى ، فالتفت
فوجدت ذئبا غير جريح يتسلل على طول الممر الضيق (المدق) ،
فأطلقت عليه النار فورا وسعدت أذناى بصوت سقوطه
وأسرعت الى البقعة التى هوى بها ، فرأيتة مكسور الظهر
يزحف فلا هو جالس ولا هو ممدد ، وقد أظهر أنيابه ،
وسمعت بعض الكلاب صوت الطلقة فأتت وبدأت الآن معركة
حياة أو موت لكننى وضعت حدا لهذا بطلقة فاصلة .

لكن ، اذئب واحد يكفى كل فريق الصيد ؟ لقد أطلقنا
النار على أربعة ذئاب أخرى ، ولم نستطع أن نقطع وقتنا
طويلا فى متابعتها فقد أقبلت الكلاب ، كلبا فى اثر كلب الى
حواف الحقل . لقد بذلت هذه الكلاب الشجاعة جهودا نشطة
رغم الشمس الحارقة .

لقد عدنا جميعا الآن الى خيولنا ونحن فى حالة رضى ؟
سواء قل هذا الرضا أم كثر ، لقد ناقشنا بعجب ثروة المنطقة
من الحيوانات البرية والآثر المضطرب لصيدها فى حقول
مزروعة ، وكأنها طيور الحجل (١١) .

وتحركت قافلتنا مرة أخرى فى طرق متعرجة وموحلة
فى مواضع كثيرة ، وكانت الليلة، تجرى بين حقول كثيفة

زراعتها • وتركت الشمس تأثيرها القوي علينا فأحدثت
جلودنا ، فهذا داب شمس أفريقيًا • حتى الفتى مرجان
Fata Morgana أنرت فيه الحرارة ، وحتى البربرى
الدى كان يسير بجانب حصانى راح يلعن الحرارة وهو
يمطر عرقًا • لقد كان هذا البربرى مخلوقا متشردا فالدماغ
الزنجية تجرى فى عروقه ، فوجهه أسود مغطى بالندب كما
أن لحيته المديبة القاسية ، وملامحه الدقيقة تنم عن دماغ
عربية • وقد سمحت له أن يحمل بندقيتى فابتسم ابتسامة
الرضى فظهرت أسنانه البيضاء وراح يتفحص السلاح الأجنبى
بعينى خبير •

ونظرنا لطريقنا من البعد بين الحقول الباسمة والاندغال
ذوات الخضرة الداكنة التى تنعكس صورتها على صفحة بحيرة
قارون وكأنها صورة على صفحة مرآة صافية ، وخلفها خط
برتقالى طويل من الصحراء الكبرى •

ورقت عقاب (صقر حوام) (١٢) - وهو المأسر
أفريقى - فوق رابية منخفضة غير بعيدة عن ذلك سيرانا ،
فترجلت من فوق حصانى وتسلمت بالقرب منه لكننى فشلت
فى اصابعه بطلقتين واهنتين ، ولم تزده هاتان الطلقتان الا
أن تحسرك ليزداد قربا منى ، فأطلقت مرة أخرى دون أن
أصيبه وما زادته هذه الطلقة الثالثة الا أن جعلته يرفرف
بجناحيه وهو ثابت فى مكانه ، فما كان منى الا أن عاجلته
برابعة لم تكن ممبأة جيدا ، فهوى •

وبعد هذه الجولة البسيطة وصلنا لقرية يائسة ضربها
الفقر • اذ كانت عبارة عن بيوت طينية معظمها مهدم ،
فمنظر القرية لا يتناسب أبدا مع البهائم المجدول بها ممثلا
فى أشجار النخيل السامة وأشجار الجوز الكثيرة • ونرج
أهل القرية بأثوابهم الممزقة ومعهم الأمانىال امرأة تمسما

— ليشاهدونا • واستدار الطريق عند القرية لنجد أنفسنا على شاطئ البحر •

فأنزلنا حمولة خيولنا وحميرنا وترجلنا وركبنا القوارب ،
التي كانت هزيلة جدية بأن تذكرنا بقوارب أجدادنا
البداية وبيوت البحيرات في مطلع التاريخ ، وكانت
مجاذيفها بدائية للغاية • انها مجرد صناديق مسطحة مربعة
يقوم عليها خمسة أشخاص أو ستة • أما داخل القوارب
فكان قدرا مليئا بمظام السمك وقاذورات متنوعة خاصة من
السمك المتعفن • لقد كانت الرائحة العفنة شديدة فلم نجد
خيرا من التدخين بغير انقطاع — وسيلة ليحمينا الى حد ما •

ومن المحتمل أن يكون المصريون القدماء قد استخدموا
قوارب على الشاكلة نفسها ، وما كانت قواربهم على أية حال
أسوأ من تلك التي يستخدمها اخوانهم هذه الأيام في بركة
قارون •

وانسابت قواربنا فوق سطح البحيرة مع رذاذ الماء الذي
تثيره المجاذيف البدائية ، ومع الأغاني السوداوية (١٣) •
وليست هناك زروع الا على جانب واحد من جوانب هذه
البحيرة الجميلة أما الجوانب الأخرى فتحيطها الصحراء •
وعلى طول شاطئها يرى المرء شريطا من شجيرات منخفضة ،
ويصبح هذا الشريط طورا عريضا (ذا عمق) وطورا ضيقا
(بغير عمق) ، وهذا الشريط الدائري الأخضر يعطى البحيرة
طبيعة خاصة • ولا يرى المرء سكانا — انه منظر عظيم لكنه —
بغير شك — يدعو للحزن • ويزيد من هذا الشعور هذا الماء
المالح العميق • انه لأمر غريب أن يرى السائح هذا البحر
الداخلي بعيدا عن المحيط (ليتفضل القارئ بمراجعة
الخريطة) يعج بالأسماء وغيرها من الحيوانات البحرية •

ان الصحراء كلها مألحة تماما وكذلك البحيرات الواقعة عند طرفها * وبعد حوالي نصف ساعة من التجديف راينا بعض البجع (١٥) يسبح فريبا فتابعناه ولم نستطع اللحاق به فهو سريع الغوم * واخيرا وبعد محاولات عديدة خلقت هذه الطيور السمينه بوقار لتبحث عن مكان آخر في البحيرة ، ولم نر غير ذلك سوى البط البرى وطيور الغطاس (الغواص) وطيور النورس (١٦) (زمج الماء - بضم الزاى وتشديد الميم وفتحها) وعدد كبير من نسور النهر (١٧) *

ان الليل يزحف ، فقد غربت الشمس وراء الصحراء مخلفة أعظم الأثر فينا بما تمتعت به عيوننا من ألوان وضياء ، وعم السكون *

لقد اقتربنا من جزيرة قارون Beziré karun ، حيث كان مغروطها الصخرى Rocky Cone يقف شامخا ، فى حاجة الى ريشة فنان يصوره بخلفية تشكلها سماء زرقاء داكنة *

وألقينا مراسينا عند شاطئ الجزيرة الشرقى المسطح ونصبنا خيامنا على بعد حوالى مائة خطوة من الماء ، وأشعلنا النار ، وانكمش العرب بين الشجيرات ، وحيانا الأمير تاكسس Taxis الذى كان قد سبقنا فوصل الى هنا فى الصباح الباكر ومعه قافلة كبيرة *

وتناولنا بعد وصولنا عشاء ممتازا أعده طباطخ عربى فى خيمة أعدت لتكون صالة طعام * وكانت الخيام مريحة تماما ومصنوعة من خامات جيدة ، وكان لكل رجلين خيمة واحدة مزودة بالأسرة ، بل وحتى المناضد * ويجيد الشرقيون اعداد الوجبات فى الخلاء ، كما يجيدون نصب الخيام بسرعة وبشكل مريح * ولا أحد يباريهم فى ذلك ، فسهيد هو من يسافر معهم *

وبعد العشاء تجولنا ودخنا ورسمنا خططنا لليوم التالي ،
وقبيل العاشرة خيم السكون على المعسكر . وقد تمدد العرب
حول المعسكر على الرمال فى الهواء الطلق فبدوا كالأشباح
بمباعاتهم البيضاء .

وبم يمر الليل بهدوء دما توقعنا خلال امسيتنا الجميلة
فقد هب عاصفه عاصيه فحادثت تقطيع الخيام ، فتسلل حسن
المسرح من خيمة الى خيمة وراح ينبت اركانها ، وقد تم
اصداح ما اصدته العاصفة بسرعة لحسن الحظ ، وفى الصباح
سابت العاصفة قد خمدت .

وتناولنا افطارنا باكرا قبل شروق الشمس ، ورحلنا
نلاحظ اسراب طيور الماء اثناء تجوالنا على شاطئ الجزيرة
لاختيار البقع المناسبة لتمرکزنا .

وما كدنا نغادر الخيام حتى رأينا اسرابا من الغسق
وأنواع مختلفة من البط البرى والبشون (مالك الحزين)
والبجع . وبدأ منظر البجع بالذات يبعث على السرور ،
فمنقار البجعة الطويل يتدلى بشكل مضحك ويبدو جناحاها
الهاثلان قادرين على حمل جسمها السمين الضخم بصعوبة فى
الهواء . ومع هذا فالبجعة من الطيور التى تعتبر قادرة على
الطيران لمسافات طسويلة . وقد ذهبت ومعى الدوق الكبير
The Grand Duke الى ساحل منبسط ، بالقرب من الخيام
واختبأنا بقدر ما استطعنا بين شجيرات الصفصاف .

ومر علينا فى مكننا هذا كل أنواع الطيور فأطلقنا
وكائنات النتائج مشمرة فلم نكن نمكث الا قليلا لنطلق طلقات
أخرى . لقد كانت طلقاتنا متتالية . وكان من بين صيدنا
طير النورس (زمج الماء) وهو نموذج مشوه لطيور الجليد
عندنا . ومما يؤسف له أننا لم نصطد بجعا ، فلم تمر علينا
واحدة فى مكننا هذا .

وسمعنا الطلقات تدوى من كل جانب فتسوقعنا صيدا وفيرا . وفى اليوم الاول كانت الطيور تحوم حولنا ، اما فى اليوم الثالث فحانت الطيور تتعاشى الصخرة الخطرة لندور على البعد .

وفى غضون ساعة كانت معركتنا الصباحية مع الطيور قد انتهت وعدنا لخيامنا . وعلى أية حال فقد اصطدت فى غضون دقائق قليلة نسرين من نوع نسور النهر كانا يحلقان فوق رأسى .

وأقبل الرجال ، واحدا فى اثر الآخر . وكان بوسسنجر Pausinger هو أوفرنا صيدا ، فقد اختبأ خلف شجيرة غير عالية بالقرب من الخيام فلما اقتربت بجعة بعد انتظار يسير ودنت فى طيرانها من الأرض أطلق عليها طلقة محظوظة فهوت .

وقبل أن أسجل لكم مزيدا من أحداث هذا اليوم أريد أن أصف الجزيرة نفسها ، فالجزء الشرقى منها — مثله مثل الجزء الجنوبى الشرقى — مسطح وتغطيه الشجيرات ، أما بقية أجزاء الجزيرة فصخرى منحدر فيما عدا الجزء الشمالى فيه شريط صغير مسطح ، وهو (لاجون) سبخ متصل بمياه البحيرة . وبين الساحل والصخرة الوسطى مسافة مسطحة قلما تزيد عن ثلاثمائة خطوة وهى مغطاة بالرمال الناعمة .

وفى الجانب الشمالى للجزيرة يمتلىء هذا السهل الضيق بالصخور الضخمة المتحطمة من الصخرة الوسطى الضخمة . وخلا بعض الشجيرات على الساحل فكل الجزيرة قاحل فلا وجود حتى للأعشاب . وتنحدر المياه سواحل الجزيرة المتآكلة ولن يمضى وقت طويل قبل أن تتلاشى الجزيرة ولا يبقى منها سوى هذه الصخرة الوسطى الصامدة .

وقد غادر الدوق الكبير The Grand Duke والأمير تاكسس
Taxis المعسكر بعد ان مكثنا معنا قليلا ، وسرعان
ما تبعتهم ومعى البارون ساورما . لقد كانت خطتنا ان نقسم
أنفسنا الى مجموعتين مع كل مجموعة عدد من كلاب الداشهند
وأن يبدأ كل فريق من ناحية ، ثم نتقدم حتى الصخرة
الوسطى .

وبين الصخرتين الأوليين ارتفع طائران من طيور
الزقزاق ، فأطلقت النار على أحدهما ، فقاد عثمان البارح
الكلاب وأطلقها بين الصخور . لقد بدأنا الآن الصيد المشوق
والجاد . لقد كان على الواحد منا أن يقفز فوق صخور ناعمة
وأكوام من حجارة قاسية ليتابع الكلاب .

وأمام شق من الشقوق التى لا تحصى نبعت الكلاب
واختفت تبحث بين الأحجار ، وفى غضون ثوان قليلة ظهر
حيوان الوشق Lynx (١٨) مغادرا جحره وهو يقفز
قفزات واسعة ، فوقفت فوق صخرة خمنت أنه لابد أن يمر
أدنى منها ، وتم ما أردت فقد سقط بفعل الطلقة الأولى ولما
عاجل القيام عاجلته بالطلقة الثانية فخر . لقد كان حيوانا
قويا جدا ذا لون رمادى له قنافع من شعر على أذنيه . انه
وشق الصحراء الأفريقية الحقيقية . انه أضخم وأقوى من
نظيره الأوربي .

وفى هذه الأثناء كان الدوق الكبير يبحث عن المنحدر
المقابل للجبل (الصخرة الوسطى) ومعه الكلاب قرأى وشقين
(بفتح الواو والقاف) لكنهما مرا سريعا فلم يستطع احلاق
النار عليهما ، وتقابلت معه فى المكان المتفق عليه وسرنا معا
مصحوبين بالكلاب ، وسرعان ما سمعنا صوت الكلاب المرح
(النباح الدال على استدلالها على طرائد) فأسرعنا للأمام
ولسوء الحظ ، فان عمى - وقد كان عليه الدور لاطلاق

النار - لم يتمكن من السير سريعا فوق الصخور فغادر الوشق جحره دون أن يلحقه أذى واختفى بسرعة بين الصخور ، وأسرت الكلاب تلاحقه بقدر ما تسعفها أرجلها القصيرة ويقدّر ما يسمح به انحدار الصخور * وفى غضون دقائق قليلة توقفت عند مدخل جحر تحت صخرة كبيرة * وكان فى الجانب الآخر للصخرة مدخل آخر أوسع ، فحشنا الكلاب على الدخول فاندفع بعضها فى الجحر المظلم ، فخرج الوشق ليقيح فريسة لينادقنا ، واختلطت دممة الوشق بعواء الكلاب التى عضها * لقد كان عواء حزينا وتوالت الطلقات الجديدة فقد كان الرجال يمارسون عملهم (الصيد) بشجاعة *

ووقفنا زهاء ساعة بجوار الجحر دون أن نلاحظ شيئا جديدا ، وكان علينا الآن ان نحث الكلاب على الخروج لنسلي الطريق للوشق ، وأخيرا خرجت الكلاب وقد اعتلاها التراب وبدأ عليها الارهاق ، ولم يبق فى الجحر الا كلبان كان من الواضح أنهما أكثر الكلاب دأبا واصرارا *

وأخيرا اكتشفنا شقا يمكننا من خلاله ان نسمع - بوضوح - نباح الكلاب، فوسغناه قدر ما نستطيع واستطعت أن أسير غور داخله بقضيب ، وعندما سحبت القضيب كان على طرفه بعض من شعر الوشق الرمادى ، فنظرت بحذر داخل الشق فرأيت عيونه الخضراء (عيون الوشق) لامعة مفعمة حيوية ، فدفعت بالقضيب بأقصى قوتي نحو الحيوان فأحسست للحظات أنه قد تراجع * ان عملية القنص تجرى الآن تحت الأرض ، فالمعركة دائرة بين الكلاب والوشق الهارب *

وما هى الا لحظات أخرى حتى خرج الوشق من الجحر بقفزات طويلة من الطرف (المخرج) الذى يقف عنده الدوق الكبير ، فعاجله بطلقة ، فولى الحيوان العميق جرحه مذهولا

يستحب نفسه حتى اختبأ تحت صخرة كبيرة • ولحسن الحظ
فقد لاحقته الكلاب الشجاعة فى مخبئه ونجح الأمير تاكسس
— بعد أن زحف فوق الصخرة — فى أن يوجه له طعنة بسكينه •
وهكذا تممدت أمامنا طريقنا ، لقد كانت أننى جميلة لكنها
ضئيلة ولم تكن ضئيلة فى حجمها أو قوة فى بنيتها ،
كالوشق الذى اقتنصته •

وبعد هذا الانتصار كففنا عن البحث وعدنا للمعسكر
ومعنا الكلاب المنهكة التى أصيبت بجروح بعضها أصابته
شديدة ، وبعضها أصابته سطحية •

وقبل الظهر أصبح المناخ سيئاً فطفت سحب رمادية غير
داكنة كل السماء وتساقط مطر خفيف متقطع ، وهذا أمر
نادر الحدوث فى هذه المناطق ، واشتدت رياح الشمال فجعلت
الجو بارداً برودة تتناقض بشكل واضح مع الحرارة الالهية
فى اليوم السابق • وارتفع الموج فى البحيرة وأعلن مسئولو
القوارب استحالة مغادرة الجزيرة فى هذا الجو •

لقد أصبحنا هنا مثل روبنزون كروز معزولين عن العالم
فى هذه الجزيرة الصغيرة • وفى المعسكر راح فريق الصيد
يعرضون صيدهم فعلقوا على حبال الخيام وشقن وجلدوا
الدئب الذى تم اصطياده بالأمس والجمعة التى اصطادها
بوستجر ونسرين •

وبعد أن تناولنا غداء ثرياً أعده لنا حسن الطباخ
الممتاز ، دخنا — بسعادة — خارج الخيام — واستمتعنا بحياة
البر (حياة الخيام) الشرقية الرائعة حتى اكتشفت فجأة أن
المسافة المستوية بين الصخرة الوسطى والساحل الشمالى
للجزيرة مغطاة بكل أنواع الطيور فقد استطلعت — باستخدام
المنظار — أن أرى أسراباً من البلشون (مالك الحزين) والجمع
والتوارس وبينها بعض نسور النهر ، قزحفت على طول

الشاطئء بأفضل ما أستطيع لأصل الى سرب من الطيور يكاد
يكون في حالة نوم كما كان بعضها يحتضن فراخه . لصد
كدت اصل بالفعل اليها لكنني فزعت عندما رأيت بجعتين
تسبحان بالقرب وكأنهما تقومان بدور الحراسة لهذه الطيور .
وقد أصبحت مكشوفاً للرؤية من الجانبين ، وتنبهت الطيور
جميعاً . لقد صدمتني الطيور البارعة ونهضت فنبهت الطيور
الأخرى فخفقت جميعاً بأجنحتها وطارت متفرقة في كل
اتجاه .

ولم يبق الا طيور النورس الساذجة التي راحت تتقصي
سبب هذا الهياج ، ثم راحت تحلق فوقى صارخة ، وسعدت
كثيراً عندما اكتشفت بين الطيور الصغيرة نورساً ذا رأس
بنى كبير من النوارس الصيادة للسمك ، وكان - بالنسبة لى -
نوعاً جديداً ، فأطلقت طلقة ناجحة فهوى ووضعته في
حقيبتى .

ولابد أن تكون هذه البقعة التي كانت تستريح فيها
أسراب الطيور الآنف ذكرها مكاناً تتردد عليه هذه الطيور
كل يوم وتمكث فيها للراحة ، وذلك لأن أرض البقعة كلها
كانت مغطاة بطبقة سميكة بيضاء من زرق (بفتح الزاى
والراء) هذه الطيور (برازها) وتناثر فيها ريش طويل
هنا وهناك بالإضافة لبقايا كثيرة من أسماك متعفنة .

وعند عودتى للمعسكر قررنا مرة أخرى أن نقسم
الساحل بيننا ، استعداداً لمركة صيد نخوضها بعد الظهر
وفي المساء .

وقد اخترت لنفسى البقعة التي اصطاد فيها الصديق
بوسنجر بجعته فى الصباح ، فجمت بين الشجيرات وخلفى
العمال العربى التابع لى . لقد كان مع كل واحد منا واحد
من هؤلاء الرفقاء (الحمالين) داكنى البشرة . ومهمتهم أن
يخضروا لك الطيور التي تسقط فى الماء ويساعدوك فى غير

دب من الأعمال ، وما على المرء إلا أن يحذر الدخول في
الحادث. بيت طويله مع هؤلاء الناس الذين يحبون المال وان يحذر
المبالغة في ابداء سروره عند كل نجاح يحققونه في عملهم ،
والا فانهم سيبدءون في المساومة ويرفعون الثمن المطلوب
بشكل دعوب . لقد أدرك هؤلاء الناس بنظرة مأكرة ازدياد
حينما لرياضة الصيد . لقد كان يجب على المرء أن يريهم
العملة (النقود) قبل بدء الصيد كما أن شبيثا من الضفط
حتى الطابع الودى يجعلهم ينزلون الى الماء (لجلب الطيور
التي سقطت به) .

وكان على أن أنتظر - عبثا - نصف ساعة قبل أن تتجه
وبجمة - رايتها على البعد - نحو مكمنى ، ولما أصبحت قريبة
قريبا كافيا أطلقت طلقة مزدوجة (طلقتين بضفطة زناد
واحدة) فاصابت الطائر واخترقت ريشه السميك ، وهبط
الطائر بخفقات واهنة من جناحيه للماء وظل يسبح لدقائق
قليلة ببطء ويدور حول نفسه ، وبدأ رأسه ومنقاره
السميك يهبطان رويدا رويدا ثم ما لبثت الأمواج أن
تلبته . لقد أسلمت البجمة الروح وهى مقلوبة على ظهرها .

ولم يفلح الاغراء كما لم يفلح التهديد فى حث الحمال
العربى المرافق لى على النزول للماء لأن البجمة كانت - وهذا
حقيقى - على بعد غير قليل ، فعدت مسرعا للمعسكر لطلب
مزيد من العون ، ولما عدت رأيت رجلا داكنا أصبح بالفعل
قريبا من البجمة بين الأمواج ذات الزبد . وكم كانت
سعادتى وفرحتى ! فان الدوق الكبير كان فى مكمن غير بعيد
ولما رأى الطائر قد هوى ومات أرسل تابعه (الحمال المرافق
له) وكان سباحا ماهرا لاحضاره .

وما هى الا دقائق حتى عاد العربى الشجاع سابحا وهو
يسحب خلفه الطائر الثقيل من منقاره . وقد كنت سميدا
بأول بجمة أصيادها . لقد كانت بجمة ضخمة بشكل غير

عادى ، وفى ساعات المساء تجولت على شاطئىء الجزيرة بحثا
عن الطيور الصغيرة •

ولما عم الظلام ولم نستطع تبين أهدافنا عدنا جميعا
لتناول العشاء ، وشهدت الأمسية عرضا آخر لما اقتنصناه ،
وسرعان ما استغرقنا فى النوم بعد يوم ممتع •

وكان علينا أن نجدف الى الجانب الآخر من الجزيرة
فى بكور الصباح التالى لنتنظر على لسان من الأرض مرور
أسراب الطيور الا أن الجو فى الليل - للأسف - كان سيئا ،
وقبل شروق الشمس زادت العاصفة وكشرت عن أنيابها حتى
ان المسئولين عن القوارب رفضوا الاقلاع بها ، ولم يكن
أمامنا الا أن نقضى يوما آخر فى الجزيرة • ونمنا جميعا الى
وقت متأخر وذهبنا فى فترة قبل الظهر مع الكلاب نفتش بين
الصخور وذهب جهدنا هباء فلم نجد وشقا واحدا ، أما بقية
اليوم فقضيناه على شاطئىء الجزيرة •

لقد كانت الطيور البحرية تبتعد عنا وتتجنب بيوتنا
الاقترب من الجزيرة ، ولما اقترب المساء درت حول شاطئىء
الجزيرة كله ، وأطلقت بندقيتى على «مقر بربرن» جميعا ،
وعلى بعض طيور الشاطئىء ، وأيضا على غراب •

وهدأت العاصفة وصفت السماء فابتهجننا بما تبقى • من
أشعة الشمس ، وبالأثر الجميل للضياء • ولم أشعر بالرضا
الثام الا بعد أن رأيت فى اليوم التالى قارب صيد يأتى بهدوء
حول الطرف الغربى للجزيرة • لقد أتى راكبو القارب من
ناحية الغرب وكانوا فى طريقهم للأرض الزراعية ، فمروا
بالقرب من مكمنى •

لقد كان مستقلو القارب ذوى نظرات وحشية ويرتدون
أسمالا بالية ، وكانوا يغنون اثناء تجديفهم اغاني مخصوصه
معدة للمغناء اثناء العمل ، وهى اغان كنبيه وعريبه . لقد نظرنا
اليهم بدهشة ، فليس ثمة اثر للحياة البشريه على هذه الجزيرة
من بعيد او قريب . وهناك ، خلف البحيرة صحراء ، فما الذى
جاء بهذا القارب الوطنى الأفريقى الذى يستقله رجال سود
الى ماء البحيرة ؟! ولم يذن هؤلاء الناس الطيبون أقل دهشة
عندما راوئى ، فقد كانت عيونهم تتساءل : اورىى أبيض
على الجزيرة القاحلة ؟! ان ما نعرفه ان الجميع وحده هو
قاطنها الوحيد . وبدأ العربى المرافق لى حوارا طويلا معهم
لم أستنتج من معانيه الا ما يتعلق بالمناخ وكيفية العبور .

كانت حصيلتنا من الصيد قليلة جدا هذا اليوم مقارنة
باليوم السابق . لقد بدت الجزيرة خالية ، وبعد ان تناولنا
العشاء قام العرب المرافقون لنا ببعض الألعاب النارية ، وهى
اللعاب تثير البهجة فى نفوس كل الشرقيين ، وكانوا أذعن
ألعابهم هذه يثيرون ضجة مرعبة ، ولم ندعهم يستمرون طويلا
فى ألعابهم هذه وجلبتهم تلك ، حتى نقضى الليل بهدوء .

وقبل طلوع نهار اليوم السادس والعشرين من الشهر
غادرنا خيامنا ، وتناولنا افطارا سريعا ، وبدأنا يومنا ،
فقد كان ماء البحيرة هادئا لذا ، فقد استطعنا عبور البحيرة
الى الجانب الصحراوى ، وكانت الخطة تقضى أن ينتقل
معسكرنا الى الجانب الآخر حيث الأرض الزراعية فى المساء .
وقد مضى وقت طويل قبل أن يستقل رجالنا القوارب ، فكل
أهل الشرق لا يتسمون بالدقة . لقد بدأ المسئولون عن
استقلالنا القوارب وهم نصف نائمين ، لقد قلبوا الشاطئ
رأسا على عقب وتسببوا فى فوضى كبيرة واستغرقت اعادة
الأمور لنصابها وقتا .

وبعد برهة ركبنا ومعنا الكلاب ثلاثة قوارب وجسد
العرب المرافقون لنا تجد يفهم الممتاد وغنوا أغانيهم بصوت
أجش • وكانت الرائحة المنبعثة من القوارب لا تكاد تحتل
ولحسن الحظ فإن البحيرة كانت تمتد أمامنا هادئة ناعمة ،
ففى مثل هذه القوارب التى يقودها عرب يداعب عيونهم
النعاس وفى مثل هذا الوقت حيث لم يغمر الكون الضياء —
كان يمكن أن نمر بتجارب محزنة خاصة اذا هبت عاصفة •
وبعد ساعة وصلنا الشاطئ عند رأس مكون من كتل حجرية
ممتد فى الماء ولا يربطه بالبر الرئيسى سوى ممشى (عنق)
ضيق جدا • ونزلنا الشاطئ وأرسلنا العرب بالقارب لعنق
الصخرة ، ومضى بعض الوقت قبل أن تنزع تلميحاتنا
الواضحة والتى تتعلب نشاطا ، رفاقنا العرب دأبوا بالبشرة
من صمتهم ، ولم يكن هناك وقت نضيقه فلا بد أن يكون
العبور من عند عنق الصخرة الموصل للبر الرئيسى آمنا ،
خاصة وقد بدأ الخط الأبيض يطل من الشرق مزيحا الخط
الأسود • •

ونظمنا أنفسنا على طول هذه الرقبة وكمننا خلف
الشجيرات الكثيفة ، فعند الصبح يبدأ مرور طيور الماء ، وكان
الباشون (مالك الحزين) أول ما أطل علينا ثم تلاه الناق ،
ثم البط والجمع والنوارس وطيور الرمال الصغيرة — الصقور —
ونسور النهر ، وتوالت الطلقات على طول الخط (المنق)
وحظيت البيجمات خاصة بطلقات لا تكاد تتوقف الا آن
المسافة كانت — لسوء الحظ — بعيدة جدا ، وشردت بجعتان
فقط الى المرتفعات المنخفضة فأطلق عليهما رجلا منا •
لقد اختفت النجوم للثو وأشرقت الشمس الأفريقية الجميلة
وبدأنا نشعر بحرارة الشمس المشرقة فى سماء صافية •
ولما غادرنا أماكننا كانت أسراب الطيور قد اختفت • وحمل
كل واحد منا ما اصطاده وعدنا الى مكان رسونا غير المصد
جيدا عند الصخرة ، وهناك تجمعنا حيث كانت قواربنا
والعرب المرافقون لنا وعشمان فى حالة استعداد •

لقد سقطت بجعتان وعدد آخر من طيور الماء بالاضافة ونسر بئس من أكلات الجيف كان يمر بين خط النار وكان عليه أن ينجو بحياته .

وبعد أن استرحنا قليلا نهضنا ثانية لنبحث عن الصراند بين اشجار الشاطئ ، وبدانا من عند اللسان (الرقبة) حيث اشجار الطرفاء الكثيفة (١٩) غير كامله النمو والعاب والحشائش المنتشرة على الشاطئ الى الشمال والى الجنوب من اللسان (الرقبة) انف الذكر . ولا يكاد الانسان يخترق هذا الغطاء النباتى الكثيف - فى كثير من الأماكن - الا بشق الأنفس رغم ضيق الشريط الذى يغطيه اذ قلما يزيد عرضه عن عشر خطوات أو عشرين خطوة ، اذ تطنى الصحراء العظيمة على الخضرة يتلالها ووديانها (الجافة) ورمالها الناعمة ، وأحيانا بأحجارها ذوات الألوان المتعددة .

لقد بقى البارون ساورما ومعه الكلاب عند الموضع الذى تبدأ فيه الشجيرات بالقرب من العنق انف الذكر . وتم وضع البنادق الأخرى على مسافات متساوية ، وذلك وفقا لخطته ، وقد اتخذت لنفسى أبعد المواقع فى بقعة كانت الشجيرات تترك بينها فرجة ضيقة ، حيث كان المدى أمامى مكشوقا وآمنا لاطلاق النار بحرية على الساحل . وقد حددت هذه البقعة الحدود الطبيعية للضربة الأولى .

وفى طريقنا خلال الرمال أتاحت لنا فرصة تفحص آثار أقدام كثيرة ومختلفة . يبدو أن وحوشا تأتي من الصحراء ليلا الى الشاطئ لتشرب وربما أيضا لتفاجىء الطيور المائية النائمة . لقد كانت هناك آثار متتالية ويعلمو بعضها بعضها ، قتلك آثار ضبع والى جوارها آثار ذئب بالاضافة لآثار ابن آوى وثعلب الصحراء وهناك ما يشير الى السحالى الضخمة ، وآثار عريضة لزحف الحيات كانت واضحة على الرمال

الناعمة * وما كدت أصل لموقمي حتى بدأت الدباب بي
الصيد ، وان كان ذلك - والحق يقال - على مسافة بعيدة
منى ، لكن نباحها العالى اقترب من موقمي *

وفجأة ظهر بالقرب من الشاطئ الرملى حيوان طويل
رمادى خشن الوبر له راس مستدق وديل طويل يسع (سدس
الشكل Shapeless) * فاطلقت عليه النار سر * انه
النمس ، وهو حيوان افريقى اصيل ، كما انه حيوان يسع
جدا ، فلم ار له شبيها فى الشكل والعادات بين الحيوانات
الأوربية التى سبق لى اقتناسها * وسرعان ما تتبعته الدباب *
وكان علينا ان نبحث عن مكنى آخر قريب بعد ان نسرت
الشجيرة التى كننا نكنى وراءها * ولم تنجح محاولتنا
الثانية - لسوء الحظ - فى القنص *

وقد دلتنا آثار أخفاف البعير فى الرمال على وجود قبيلة
بدوية فى المناطق المجاورة وسرعان ما رأينا عددا من -
ترعى تحت الشجيرات وسمعنا نباح كلابها ، ورأينا بعض
أفراد هذه القبيلة - على البعد - يقتربون من الخيام *
وقيل لى ان القبائل البدوية هنا بائسة جدا وان التعامل معها
لا يبعث على الارتياح فهى قبائل صحراوية خالصة وليس
لأحد سيطرة عليها البتة *

لقد انقسم فريق الصيد الآن الى قسمين ، وقد اقترحت
أنا والبارون ساورما ، الدوق الكبير أن نستقل أحد القوارب
المتاحة وأن نحاول الاقتراب من بعض البجع الذى كان يسبح
غير بعيد عن البر ، بينما كان على الرجال الآخرين أن ينشغلوا
بطيور الغراء السوداء black Coats التى تتردد بكثرة على
البوص (الغاب) النامى على ساحل البحيرة *

لقد ذهبت كل مناوراتنا سدى مع هذه البجعات الحذرة
ولا حتى طائر البلشون الفضى الكبير الواقف على الساحل

سمح لنا بالاقتراب * لقد ذهبنا الى أماكن أبعد حيث البوس (الغاب) أكثر كثافة ، وحيث امتداده أعمق اذ كان يغطي الماء لمسافة مائة خطوة من الشاطئ ، وظهر البط الجميل ذو العيون البيضاء في طريقه للهجرة وارتفع سرب من هذه الطيور المتشابهة فوق الشجيرات أمام قاربنا وظهر البلشون ذو اللون النيلي والدرق والصفي وغير ذلك من الالوان من بين الغاب (البوس) الخفيف * واصطدنا عددا كبيرا من البط ليخون منبه بحمصط بها في وعاء حفظ اللحوم (Lader) ، وجلس المسئولون عن القوارب وقد تجردوا من ملابسهم وعند كل طلقة تصيب هدفا ، يقفز الواحد منهم للماء ليحضر الغنيمة ، وفجأة انشق الغاب عن بدوى ضخمة ذى كبرياء يحمل بتدقيته الطويلة ، وكنا عند ظهوره على بعد ياردات معدودة من الشاطئ * لقد أتى ليعرض علينا شراء بعض الطيور التي صادها في الصباح *

وقد اختفى هذا البدوى بهدوء وبلا ضجة كما ظهر ، وكان سعيدا بما اعطيناه من فسخ عمله بضيه قليلة * لسد اقرب الظهر (منتصف النهار) وجدنا عاتدين الى الراس الصخرى * ان الشمس لاهية ، والرائحة في قاربنا في هذا الوقت تكون أشد عفونة من الرائحة المنبعثة ليلا * وكان يجلس بالقرب منا رجل عجوز مشوه الخلقة على نحو ما له لحية مجمدة بيضاء وعلى رأسه عمامة ، وكان مظهره الخارجى ينم عن عدوانية ، ولم يجدف ، وانما أتى معنا فقط حبا للاستطلاع *

ولم تكن سعاد بضيقتنا المتطفل هذا فلم يكن قربه منا في الحقيقة يخلو من خطر *

ووصلنا للصخرة بأمان في غضون نصف ساعة حيث كان الرجال الآخرون في انتظارنا وكانوا قد اصطادوا عددا كبيرا من طيور الغراء السوداء (٢٠) Black Coat ، وقد وضعنا

كل ما اصطدناه في النصف الأول من النهار في أحد القوارب،
وأرسلناها في عهدة المسئول عن الصيد التابع لى الى الشاطئ
المقابل حيث كانت خيامنا (معسكرنا الجديد) قد نصبت
هناك .

لقد وافق فريق الصيد الآن على قضاء فترة راحة لمدة
ساعة ، وتناولنا افطارا متقشما بالقرب من الشاطئ على
منحدر الراس الصخرى ، وكان افطارنا يتكون من اللحم
البارد والخبز وبعض الطعام المعب غير الجيد ، وشراب
ليمون غير طيب المذاق . وراحت جماعتنا تتسلى باقتناص
السحالي الصغيرة غريبة الشكل والتي للواحدة منها عرف أو
شئ كالعرف فوق ظهرها ، وكانت الحيات كامنة تحت
الصخور بأعداد غير قليلة .

ولم تكن فترة الراحة هذه كافية لانعاشنا فالشمس
كانت تلتقي بأشعتها الحارقة بشكل مربع على المنحدر
الصخرى وكانت الأرض ملتهبة أما الهواء فكان رسول
الحرارة التي تسفع جلودنا . لقد كان أشد أيام رحلتنا
حرارة ، وهو أشد حرارة بكثير من أشد أيام صيفنا الأوربي
حرارة . وسرعان ما نهضنا مرة أخرى وسرنا تحت الشجيرات
بالقرب من الساحل في الاتجاه الشمالى . لقد كان السير على
رمال الصحراء الحارقة التي تعكس الحرارة الشديدة أمرا
لا يمكن احتماله الا بشق الأنفس . ومرة أخرى أحطنا
بالشجيرات في فترات محددة وبدأنا رياضة الصيد المحببة
للنفوس . وعلى أية حال فان فريق الصيد بدا غير مستعد
وكانت المطاردة غير منتظمة فكنا نتقهقر ونتقدم مرات عددا .
وبعد أن توقفنا عند الخليج لوقت قصير ظهر نمس أمام
الدوق الكبير فقلب الحيوان القبيح لكنه سرعان ما انسحب
بين الشجيرات فتعقبته الكلاب ودارت بينها وبينه معركة
شرسة ، واشتبك كلب (من نوع داشهوند) ضخيم طويل

الأرجل مع النمس ، وانفض الغريمان أحدهما عن الآخر بصعوبة فائقة بعد تدخل بعض الرجال فأصابته يد أحدهما عضه من الكلب وأصابته الآخر عضه من النمس .

وفى هذه الأثناء مرت كثير من طيور الفاق والبلشون بالقرب منى على طول الشاطئ لكننى لم أطلق النار عليها ، انتظارا للغنيمه الأكبر (النمس) . ولما كانت فترة يمسد الظهيرة قد حلت فقد قررنا أن نبدأ فى التجديف عائدین الى الجانب الآخر وأن نتخذ فى طريق العودة خطا مباشرا مستقيما . لقد أصبح الهواء أبرد وكان بإمكاننا الاستمتاع الآن بأن نلقى نظرة على مياه البحيرة ، وأن نلقى نظرة شاملة على الصحراء ، فالظروف الآن مواتية أكثر مما كان عليه الحال فى الصباح الباكر .

وكان مسئولو القوارب يتمتعون بروح معنوية عالية ، فكانوا يخلعون ملابسهم ويقدفون بأنفسهم فى الماء بين صياح طيور الماء واضطراب صغارها غيرالقادرة على الهرب ، ثم يسبحون عائدین ليلحقوا بالقوارب ، وقد قدم كل واحد منهم من اتجاه مختلف ، وكانت لهذه المباراة ميزة عملية لنا فقد جعلت المجدفين يجدفون بطريقة أسرع .

ووصلنا بعد رحلة استغرقت الساعتين ، وبعد أن مررنا بأدغال الصفصاف على الساحل الرملی الذى اقمنا عليه خيامنا ، وجدنا كل شئ جاهزا ومنظما بطريقة مريحة . لقد اختاروا هذه البقعة بعناية فهذا الساحل الجاف يفصل البحيرة عن المستنقع (المنطقة السبخة) . ولأن العشاء لم يكن جاهزا فقد ذهب بعضنا مباشرة للمستنقع (المنطقة السبخة) الذى يقع بين معسكرنا وأول الحقول المزروعة .

وفى هذه المنطقة التى ينطيطها البوص وأشجار الصفصاف والأعشاب والنخث (بضم الخاء) (٢١) البنى كرية الرائحة ،

يجد المرء حشودا من طيور دجاجات الأرض والشناقب (المفرد : شتقب يضم الشين وتسكين النون) - البط ايضا وتوعين من طيور الزقزاق ، وراحت الضفادع تقفز هنا وهناك بأعداد كبيرة ، وكانت البقعة كلها تعج بالحشرات السامة .

وأطلقنا كثيرا من الطلقات على أنواع مختلفة من طيور المستنقعات وانسحبنا من هذا المكان المعبأ بجو المستنقعات الجالب للحمى ، قبل ظهور الشفق ، وكان منظر الشمس الجميل حال غروبها ، وطعام العشاء الجيد هما خير نهاية لهذا اليوم المثير ، وخلدنا للراحة فى معسكرنا .

وفى اليوم السابع والعشرين من الشهر بدأنا مبكرا بهدف ممارسة الصيد طوال طريق عودتنا الى محطة (أبو سكر) .

فى البداية سرنا عبر الأرض السبخة واصطدنا بعض الشناقب وأنواع أخرى من الطيور ، وعند عبورنا لحقل كان به عدد من طيور مالك الحزين (أبو قردان ؟) وطيور البويت (أبو طيط) ، أصابت طلقاتنا أهدافها ووصلنا لمنطقة التلال الرملية التى تغطيها حشائش قصيرة وبعض الشجيرات التى تفصل المستنقع (الأرض السبخة) عن الأراضي الزراعية . وطاردت الكلاب بعض الأرانب البرية ، وكان من حظى أنا وأحد المرافقين لنا أن يصطاد كل منا واحدة من هذه المخلوقات المضحكة droll .

لقد كان الأرنب الذى اصطدته أرنباً صحراويا حقيقيا ، اذ كان ضئيلا هزيلا طويل السيقان ، لونه كلون الأيائل وكانت أذناه طويلتين مضحكيتين تكادان تكونان شفافتين . وبينما كنا نطارده الأرنبين ، أطلقنا النار أيضا على أحد

العواسق (المفرد عوسق وهو نوع من الصقور) وبعض
الحماس *

واسترحنا لنصف ساعة عند المنطقة الفاصلة بين
الأرض الزراعية ، وأرض الشجيرات البرية ، وتناولت
اقتطارا من طعام بارد وضعه أمامنا بعض العرب *

وبعد أن تناولنا وجبتنا غير المترفة تابعنا طريقنا عبر
الحقول والقنوات واختلطنا بالفلاحين المجهدين الذين
استندمناهم لاثارة الطرائد ، وتبعنا الأطفال والنساء
وتركوا الجواميس والمحاريث طمعا في البقشيش * ولحنا
— غير بعيد — حقول قصب السكر الواسعة لازالت دون حصاد
رغم بدء موسمه ، فأسرعنا إليها يحدونا الأمل *

وناقشنا مشروع الصيد في هذه الحقول بينما كنا نسير
على حافتي قناة جافة عريضة *

ولما وصلنا للبقعة (حقول قصب السكر) وضعنا البنادق،
وانتظر الدوق الكبير في ركن بجوار القناة أما انا وهويوز
Hoyos فوقفنا عند الجانب الذي يحد الحقل من ناحية
القناة وأحاط الآخرون بكل نواحي الحقل * ومما يؤسف له
أن عدد البنادق كان قليلا جدا كما كانت المسافات بين
القناصين بعيدة * وبالقرب منا كانت الجواميس والجمال
تحملق فينا * * ودخل مشيرو الطرائد بين أعواد القصب
بصعوبة وراحوا يصيحون صيحات مفزعة ، وفي هذه الأثناء
أطلق جاري النار في الحقل ناحية اليمين ، ومن ثم قفز ذئب
ضخم بيتى وبينه ، وأسرع بخطى فزعة عبر القناة ، ورغم
أن المسافة كانت بعيدة فقد جريت عبر القناة وأطلقت
بندقيتي ذات الماسورتين اثر الحيوان الهارب * فأسرع يعبر
الحقول ورجله اليمنى الخلفية مجروحة *

وسرعان ما ظهر مثيرو الطرائد ، وظهر من بين أعواد القصب الصفراء ، الفلاحون الداكنون ينظرون بدهشة شديدة بل ان البربر Moors فعلوا الشيء نفسه ، وكان عدد هؤلاء البربر كبيرا ، وقد أقبلوا الواحد اثر الآخر ، وفى يد كل منهم عود قصب يقضم منه ويمتصه * ورحنا نثير الطرائد فى الحقل للمرة الثانية *

وفى هذه المرة أطلق جارى طلقة نحو اليسار فقتل ذئبا كبيرا بطلقته الواحدة هذه * وسرعان ما سمعت صوت قعقة البندقية القديمة (الرفل) التى يحملها أحد الرجال على الجانب الأيسر * لقد أصاب ذئبا لكن أصابته لم تكن مميتة فأصابته الطلقة الثانية بجرح بالغ ، فغادر خارجا من بين أعواد القصب وتلقى الطلقة الثالثة فى الخلاء *

وبعد ثلاث دقائق قتل جارى السواقف عن يمينى ذئبا آخر كبير الحجم بطلقة واحدة ، وبعد لحظة وثب ذئب آخر بينى وبينه وعبر القناة وولى ، فأطلقت أنا وجارى النار معا فى اثره ورأيناه يجر نفسه بين الجاموس نحو حقل قمح ، وقد كانت أصابته بالغة *

ولما ظهر مثيرو الطرائد من مكامنهم تركناهم يخترقون الحقل للمرة الثالثة ، وسرعان ما أدركت ان طريدة ما ستمر فى طريقى ، وبالفعل فقد مر أمامى ذئب كبير وسيم يتحرك بسرعة وسط أعواد القصب ، فأطلقت عليه فكان من حسن حظى أن أصيب وهوى * وبعد ذلك بدقائق قليلة أطلق جارى السواقف عن يسار طلقة على ذئب آخر فجرحته جرحا قاسيا فزحف بصعوبة نحو حقل قول مجاور * وهرب ذئبان دون أن يلحقهما أذى ، اذ لم تطلهما طلقات البنادق *

وأطلق أحد الرجال طلقة على نمس فجرحه جرحا غائرا، لكنه زحف واختبأ بين أعواد القصب الكثيفة، وذهبت جهودنا

سدى فى البحث عن الذئاب الجريحة على مدى ما تصل اليه
عيوننا .

لقد ذهبنا الآن الى الجانب الآخر لحقل القصب حيث
كان مترجمنا قد أمر باعداد مخيول الركوب والحمير لتدو
فى انتظارنا . ووضعنا الذئاب التى اصطدناها بعناية فوق
حمار ، وتحركت قافلتنا مرة أخرى . وتفرق مشيرو الطرائد
من مكانهم فى اتجاهات مختلفة ولم يبق معنا الا الحماران
والمرشدون (الأدلاء) .

وبدا أحد الحمارين يمارس فى أوقات فراغه مهنة
الحاوى ، وهى مهنة محببة للمصريين ، فقد كان يحتفظ
بشعبانين كبيرين فى كيس جلدى كان يخبئه تحت ثوبه وكان
قد أمسك بهما بالقرب من البحيرة بالأمس . . ولا شك أنه
ابتدع طريقة لجعلهما يتنفسان . ومع ذلك فقد بدا كأنهما
ماتا . وفى غضون دقائق قليلة فان هذين الشعبانين البائسين
اللذين نزعنا أنيابهما - قد استعادا نشاطهما ، وزحفا
عائدين للكيس الجلدى البنى . وكنا نسير ببطء وكانت
الكلاب (من نوع الداشهد) تجرى بجوار الخيول ، لكن
عندما اقتربنا من قرية صغيرة بأسة ليس فيها ما يسترعى
الانتباه الا بعض النخيل وبعض أشجار الجميز . اختفت
الكلاب فى حقل فول مربع الشكل ، وعلى الفور بدأنا عملية
صيد متسمة بالحيوية . لقد ترجلنا عن خيولنا وأحطنا
بالحقل الذى كان يمكن أن نغطيه بطلقاتنا من جانب الى
جانب ، واستمرت عملية الصيد فى هذا الحقل الضيق زهاء
ربع الساعة ، وأطل نمسان بالقرب من بنادقنا لكننا أحجمنا
عن اطلاق النار مخافة أن يصيب أحدا جاره وأدرك النمسان
الموقف فلم يغادرا الحقل الآمن رغم مطاردة الكلاب . ولأن
الوقت يمضى سريعا فقد كان علينا أن نستدعى الكلاب
ونستمر فى مسيرنا دون أن نحقق أهدافنا فى الصيد ، وأدى

بنا الطريق الى تجاوز خط السكك الحديدية الذى يربط بين حقول القصب ومصنع السكر فى (أبو سكر) ، وأوقفنا قطارا عابرا ودخلنا عربة فارغة ، وبهذه الطريقة وصلنا (أبو سكر) بسرعة .

وركب العرب المصاحبون لنا بمهارة وسرعة لا تصدق بين العربات . ولما كان لدينا متسع من الوقت فقد قررنا ان نثير الطرائد فى حقل قصب السكر الذى كنا قد اصطدنا فيه أول يوم ، وذلك على سبيل التجربة ، وأحطنا بالحقل وجمعنا اكبر عدد من سائقي الدواب والسياس ، وما كنا نبدأ العمل حتى قفز ذئب بجوار احدى البنادق التى كانت قائمة فى أحد الأركان ولم يستطع جارى اطلاق النار لقرب الذئب منه ومخافة اصابة أحد الحضور ، ولما استعد للاطلاق كان الذئب قد ولى بعيدا .

وما هى الا ثوان حتى أطلق أحد رجالنا النار على ذئب وسيم جدا . لقد كان اضعهم من كل الذئاب التى سبق لنا قتلها ، وقبل أن يخرج مثيرو الطرائد كانت البنادق قد أصابت ذئبين ، وضاعت منا احدى دجاجات الارض a wood cock (٢٢) .

لقد غادرنا هذا النخسل الآن وكان حصادنا منه من الطرائد هذه المرة أكثر مما كان عليه الحال فى المرة السابقة . وعلى المحطة ، بدأ حصادنا من الطرائد غير عادى : ستة ذئاب أحدثنا بها جروحا فى يوم واحد ، وكان لدينا ما يجعلنا نرضى عن حصاد رحلتنا من الصيد فى اليوم ، فقد كان هذا الحصاد يتمثل فى وشقين (الوشق حيوان من فصيلة السنائير وهو أصغر من النمر) وسبعة ذئاب ونمسين وأرنبيين بريين ، وأربع بجعات ونسرين من نسور النهر ، وأحد صقور الجيف ونسر أفريقي جارح ، ومائة وسبعين طائرا صغيرا كان من بينها أنواع غريبة .

وتناولنا عشاءنا فى صالة الانتظار ، وكان المساء وقد
هبط الليل ووقفنا مستعدين فوضعت حاجياتنا فى الحافلات
وغادرنا (أبو سكر) وبقي معنا الاخوان ساورما والأمير
تاكسس Taxis طوال ساعتين ثم فارقانا عند وصولنا
لوادى النيل *

وبعد وداع حار ركبنا الباخرة متجهين جنوبا الى أسيوط
الهدف التالى لرحلتنا النيليسة الممتعة وخلدنا للراحة فى
الحافلات وسرعان ما وجدنا أن النوم هو أفضل مكافأة بعد
الجهد الذى بذلناه *

تعليقات المترجم

عن الفصل الأول

(١) تريست أو تريستا - الآن - ضمن الحدود الإيطالية في أقصى الشمال الشرقي لإيطاليا ، قريبة من حدود ما كان يعرف بيوغسلافيا ، لكن الأمور لم تكن على هذا النحو وقت قيام الأرشيديوق رودلف برحلته ، ومن المفيد هنا استعراض وضع تريست هذه المقارئ الذي يقرأ الرحلة من منظور تاريخي ، فقد استعادت النمسا سيطرتها على تريست والساحل الأدرياتيكي بل وامتدت سيطرتها على معظم إيطاليا • بعد مؤتمر فيينا الشهير ١٨١٥ • كل ذلك بمباركة أوروبية ، رغبة في سيادة المبادئ المحافظة ، ورغبة في إبعاد فرنسا عن التأثير في الساحة الأوروبية ، وكانت رغبة الإيطاليين في استعادة تريست - بالإضافة لأسباب أخرى • أحد أسباب انضمام إيطاليا للحلفاء ضد دولتي الوسط (ألمانيا والنمسا) في الحرب العالمية الأولى • وقد قام رودلف برحلته هذه في الفترة التي يعتبرها المؤرخون ممثلة للتحالفات والتحالفات المضادة التي مهدت للحرب العالمية الأولى •

(٢) وقت القيام بالرحلة كانت النمسا والمجر تشكلان كيانا سياسيا واحدا باسم مملكة النمسا والمجر أو المملكة الثنائية ، وكان نظامها يقوم على أساس أن لكل من النمسا والمجر دستورها وإدارتها الذاتية ، أما شؤون الدفاع والسياسة الخارجية فكانت من اختصاص الإدارة الامبراطورية في فيينا ، وكانت المملكة الثنائية تضم عدیدا من الأقليات القومية المنظمة كالتيشيكي والبولنديين والسلاف والكروات والطلبات ، وظل هذا الكيان السياسي قائما في الفترة من ١٨٦٧ إلى ١٩١٨ • وهذه المعلومة تقصر كثيرا من العبارات الواردة في ثنايا الرحلة •

(٣) كما سيتضح من سياق الرحلة ، فإن الأمير رودلف كان يعتبر نفسه - سواء في مصر أو في القدس في أرض مقدسة ، وقد وصف مصر في أكثر من مكان في رحلته هذه بأنها أرض مقدسة ، كما وصفها لاعتبارات دينية بأنها أرض الرب ، فلا غرابة إذن أن يصف نفسه ومن معه بأنهم حجاج •

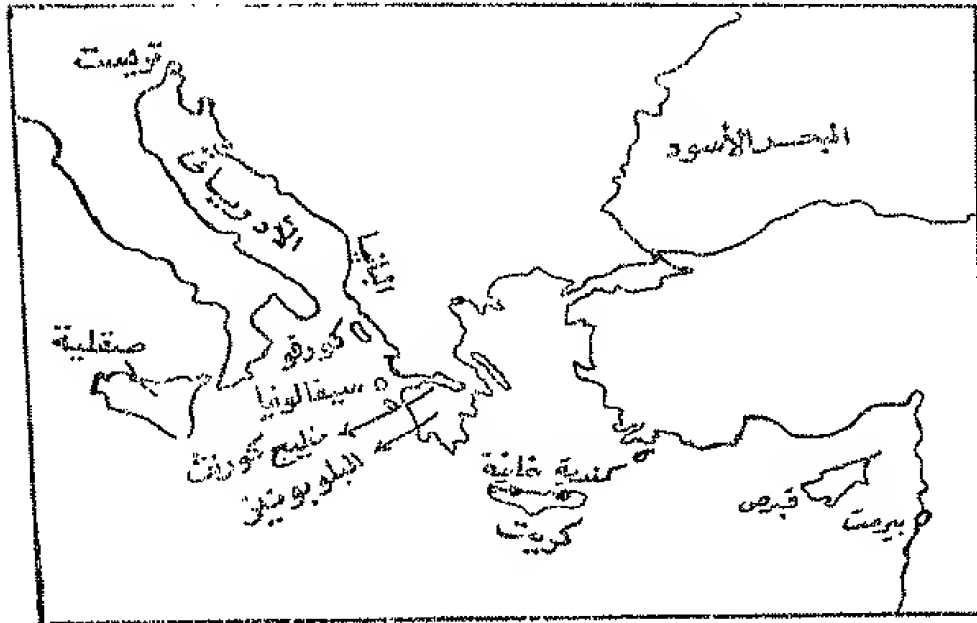
(٤) هكذا بالنص ، وهو تعبير غير دقيق ، والمقصود أن البرد كان قارسا ، وأن درجة الحرارة قد بلغت عشرين درجة مئوية •

(٥) اشارة الى رحلة قام بها في غرب أوروبا ، والمحيط المقصود هنا هو الأطلنطي •

(٦) في مواجهة الساحل الألباني حاليا ، لكنها ذات طابع يوناني •
انظر الخريطة •

(٧) اشارة للصراع القديم على البانيا التي كانت تطمع النمسا في ضمها ، ويطمع الصرب الذين يؤيدهم الروس في اجتياحها وجعلها جزءا من صربيا الكبرى • ترى هل اختلفت التحالفات والتحالفات المضادة ازام البلقان في القرن التاسع عشر عما هي عليه الآن ؟ أيهم المانيا والنمسا قيام الصرب الكبرى المتحالفة تقليديا مع روسيا ؟ - (المترجم) •

(٨) تشير الخريطة التالية لكثير من المعالم التي اشار اليها الأمير ردولف في هذا الفصل :



(٩) أشرنا للصراع على البانيا في حاشية سابقة - انظر أيضا مقدمة الترجمة العربية •

(١٠) السرو Syresses - كما ورد في معجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية : شجر حرجي دائم الخضرة هرمي وشكل ، وهو على أنواع •

(١١) انظر الخريطة التفصيلية التالية :



(١٢) انظر الخريطة بالحاوية السابقة •

(١٣) هو الشاعر الاغريقى العظيم هوميروس الذى نسبت اليه الاللياذة والأوديسة ، وقد أثرت أشعاره فى آداب العالم كله ، عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد • ويتشكل الباحثون فى نسبة الأوديسية اليه

سيد احمد الناصرى : الاغريق تاريخهم وحضارتهم • مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٨٤ •

(١٤) أهمها : كورفو وزانطة وكتالونيا . انظر الخريطة
حاشية ١١ .

(١٥) بطلها أوديسيوس ويسميه الرومان أوليكسيس Ulixes لمزيد
من الاطلاع يمكن الرجوع الى :

- أمين سلامة : معجم الاعلام فى الأساطير اليونانية والرومانية .
- صقر خفاجة : هوميروس ، ١٩٥٦ .
- لطفى عبد الوهاب يحيى : هوميروس ، تاريخ حياة ، ١٩٦٨ .

(١٦) ديانا ، وبالاغريقية آرتميس ، يطلق عليها هى وأختها مينرفا
« العذراوان البيضاءوان » سلحها جوبيتر يقوس وسهام وجعلها ملكة
الغابات وجعل لها حاشدية من ستين حورية ، « المزمتهن ديانا عفة كاملة ،
وكان الصيد هو تسليية ديانا المفضلة ... »

انظر على سبيل المثال :

كوملان ، ب : الأساطير الاغريقية والرومانية ، ترجمة أحمد رضا
محمد رضا (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢) ، ص ٢٨ .

(١٧) راجع مقدمة المترجم .

(١٨) اشارة لازدهار الحضارة ايام العظمة اليونانية القديمة .

(١٩) تقول الأسطورة الاغريقية ان اسكليبيوس تدرب حتى أصبح
طبيبا ماهرا قادرا على احياء الموتى ، فأرسل زوس صاعقة قتلتة ثم عاد
فعفا عنه ورفعته مرة أخرى لمرتبة الآلهة وقامت عبادة اسكليبيوس هذا فى
بعض مناطق اليونان ، وكان الشعبان الملتف حول قائم من الرموز التى
تشير اليه (الرمز نفسه لازل مستخدما للاشارة للطب والدواء ، ونجدته
معلقا فى الصيدليات) وكان الكلب أيضا مقدسا فى ديانتة ، انتقلت
عبادته للرومان .

انظر : أمين سلامة : معجم الاعلام فى الأساطير اليونانية والرومانية .

(٢٠) بطل الأوديسة — انظر حاشية ١٣ و ١٥ .

(٢١) رب البحر فى الأساطير الاغريقية والرومانية وله سلطان على
الرياح ...

أمين سلامة : مرجع سبق ذكره .

(٢٢) من الفصيلة البلشونية ورتبته طويل الساق ، والاسم الشائع في مصر (أبو قردان) وهو أبيض طويل الساق ويسمى صديق الفلاح ، وتمة أنواع أخرى بعضها رمادي وبعضها حمراء - (المترجم) .

(٢٣) Cormorant غاق ، والمؤنث غاقة . طير مائي من الفصيلة البجعية ورتبته كفيات القدم ، ومن أسمائه أيضا Sea raven وCool goose .
عن معجم الشهابي - (المترجم) .

(٢٤) الغواص diver طائر له قدرة على الغوص المحدود في الماء . صغير الحجم . يرى بكثرة محلقا على ضفاف النيل - (المترجم) .

(٢٥) Sea mew ويسمى أيضا زمج الماء (بتشديد الميم وفتحها) ويطير أسرابا فوق البحار والشواطئ وريشه طويل ، ومن رتبة كفيات القدم .

راجع مادة Sea-gull بمعجم الشهابي . - (المترجم) .

(٢٦) هذه العادة (توجيه الوجه صوب الوطن عندما يحرز المسرء انتصارا أو يقوم بعمل مشرف) لازالت فيما يبدو موجودة بوضوح عند بعض الشعوب الأوروبية ، وكان الشخص يهدى - بتصرفه هذا - انتصاره أو عمله إلى بنى وطنه ، ومنذ عدة أعوام رأيت بعض الشباب الانجليز والألمان (كان عددهم ثلاثة - انجليزيان وألماني) في منطقة الأهرام ، ولما أفلح الألماني في تسليق بعض صخور الهرم ، راح ينظر بعيدا موليا ظهره لزميليه (الانجليزيين) ، ولما سألت سؤالا عابرا : لأى شيء ينظر ؟ قال الانجليزيان وهما يضحكان : إلى ألمانيا To Germany . ولم ادرك وقتها الأبعاد الكاملة لهذا التصرف . ومن أغرب ما رأيت في هذا الأمر وتحققت منه تماما أن بعض الإيرانيين في منطقة الخليج ، بعد أن يؤدوا صلواتهم ووجوههم صوب الكعبة المشرفة ، يغيرون اتجاه وجوههم ليجعلوها صوب فارس (إيران) وهم يقولون الدعاء أو التسبيح ، فكانهم يصلون صوب الكعبة (المشرفة) ويدعون ويسبحون صوب إيران ، كما لاحظت أنهم يفعلون الشيء نفسه (تولية الوجه صوب بلدهم) في مواقف مختلفة ، ومن المؤكد أنهم في شهر رمضان المبارك لا يفطرون الا اذا انطلق مدفع الاقطار في إيران ، وليس في البلد الذي يقيمون فيه رغم الفسارق الزمتى . حقا أن الرحلات منبع لا ينضب للعلم والمعرفة - (المترجم) .

(٢٧) من الجزر الأيونية - انظر الخريطة ، حاشية ١١ .

(٢٨) انظر الخريطة .

(٢٩) انظر الخريطة .

(٣٠) يطلق الاسم على الساحل الشمالى الشرقى للبحر الادري
فيما بين الساحل الالبانى وتريست بما فى ذلك ساحل استيريا . وقد
هذا الساحل الأخير حتى تريست . انظر الخريطة .

(٣١) ما بين القوسين توضيح من المترجم - عن معجم المورد

(٣٢) راجع مادة Lepus فى معجم الشهابى لمصطلحات الـ
الزراعية لمعرفة الفرق بين مصطلح Hare وتعنى الأرنب الوحـ
و Lepus وتعنى الأرنب البرى . فيما يرى صاحب المعجم
(المترجم)

(٣٣) خطأ مطبعى غالبا . والصحيح الشرقى - (المترجم) .

(٣٤) فى كريت ، وثمة ميناء بالاسم نفسه (كانديا) أو كاند
انظر الخريطة - حاشية ١١ .

(٣٥) الاشارة الى مصر المقدسة هى ايمان ضمنى بما ورد
الكتاب المسيحى المقدس - وصاحب الرحلة مسيحي - فقد ورد فى
التكوين (جنة الرب ارض مصر) ، وفى السفر نفسه (نهرك يا
النيل . هو النهر الثانى من انهار الجنة) وثمة حديث عن الرسول ،
(صلى الله عليه وسلم) لا يبعد فى معناه عن هذا النص الانجـ
الاخير - (المترجم) .

تعليقات المترجم

عن الفصل الثانى

(١) الساحل المصرى الشمالى يختلف الآن - كما يلاحظ القارئ - عن الوصف الذى يرد فى كتب الرحالة خاصة ، الذين زاروا مصر منذ عصور بعيدة نسبيا ، ويرجع ذلك الى أن مكونات الساحل الشمالى ترجع فى الاساس الى طمى النيل ومكونات العصر الجيولوجى الحديث (البلايستوسين) ، قديمة دمياط على سبيل المثال عندما تم انشائها كميناء كانت تطل على ساحل البحر المتوسط مباشرة ، أما الآن فيبذلها وبين الساحل عدة كيلو مترات بحيث يمكن القول أن دمياط نفسها لم تعد ميناء ، ويرجع ذلك الى أن طمى النيل الذى كان يجلبه النهر قبل إنشاء السد العالى كان يزيد من امتداد الدلتا فى البحر أربعة أمثاله فى السنة على الأقل ، وذلك فى المتوسط ، ومن هنا نشأت على نحو خاص عدة رؤوس طينية واضحة على خريطة مصر أهمها رأس دمياط ، ورأس رشيد ورأس بلطيم ، وقد طمى النيل فى مواضع كثيرة فى ساحل مصر الشمالى خاصة بين بورسعيد والاسكندرية على المكونات الرملية ، فالمقادم الى مصر هذه الأيام عن طريق البحر المتوسط ، لا تقابله هذه الكثبان الرملية فى المنطقة الآنف ذكرها للسبب الذى ذكرناه سابقا وللتوسع الزراعى واستصلاح الأراضى ولامتداد البنيان العمرانى . وليس أدل على تغير المسرح الجغرافى للأحداث التاريخية من أن فروع النيل فى الدلتا كانت سبعة أفرع فى التاريخ القديم ، تقلصت الى ثلاثة أفرع فى العصر الإسلامى ، وهى الآن فرعان كما هو معروف ، أما بقية الشبكة المائية فهى جهد بشرى ، وقد تقلص عدد الأفرع بسبب انسدادها أو امتلائها بطمى النيل . كيف يمكن لمباحث تاريخى أن يلم بالأحداث فى العصور القديمة والوسطى ، بل والحديثة دون معرفة التغيرات الجغرافية أو المسرح الجغرافى التى تجرى فوقه الأحداث غير منفصلة عنه ؟ - (المترجم) .

انظر على سبيل المثال :

محمد عوض محمد : نهر النيل ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

محمد حجازى محمد : نحو دراسة فى جغرافية مصر ، القاهرة ،

١٩٨٦ .

محمد صفى الدين ومحمد صبحى عبد الحكيم : دراسات فى جغرافية

مصر ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

(٢) وقد يكون المقصود نائب السلطان (الخديو) .

(٣) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

(٤) استخدام الأمير ردولف أكثر من مصطلح تشير جميعا للشرق وكان له استخدام خاص بها ، وقد يختلف عن المعايير السائدة لدى المؤرخين .

ونبدأ بالمفاهيم السائدة لدى المؤرخين ، إذ يرون أن مصطلح الشرق الأدنى Levant إلى مصطلح الشرق الأوسط من حيث المساحة ، وكان المصطلح (الشرق الأدنى) يطلق على البلاد الواقعة تحت الحكم العثماني عندما كانت الدولة العثمانية في ذروة قوتها واتساعها ، ففي القرن السادس عشر كانت تمتد - أحيانا - من مشارف فيينا إلى القرم ومن البحر الأسود إلى العراق ومسقط وعدن وشبه الجزيرة العربية وسواحل البحر الأحمر النورية ومصر والشام وليبيا وتونس الجزائر .

أما مصطلح الشرق الأوسط فيضم إلى جانب الدول العربية إيران وتركيا (الحالية) وكريت وقبرص والصومال وإثيوبيا وباهسنان . (انظر على سبيل المثال كتابات عبد العزيز نوار عن تاريخ العالم العربي) ، أما أرنولد توينبي فقد قسم الشرق الأدنى من الناحية الحضارية - فيما يقول محمد أنيس في كتابه عن الدولة العثمانية والشرق العربي - إلى ما يسميه مناطق حضارة الشرق الأدنى Near eastern civilization ويقصد بها الحضارة اليونانية ، وحضارة الشرق الأوسط ويقصد بها المناطق التي ظلتها الحضارة الإسلامية في الشرق الأدنى . ويقول محمد أنيس في مطلع كتابه آف الذكر : أن الأوروبيين يقصدون بالشرق الأدنى الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

ولكن المتصفح لهذه المرحلة يلاحظ أن ردولف لا يدخل اليونان ضمن مصطلح الشرق الأدنى Levant كما لم يدخل أهلها اليونانيين ضمن مصطلحه Levantine ، والشئ نفسه فعله بالنسبة للأتراك ، وقد يكون النص عليهم (الأتراك) من باب التأكيد عليهم والاهتمام بهم لا لعزلهم عن مفهوم الشرق الأدنى :

(٥) كانت إمبراطورية النمسا والمجر تضم العديد من القوميات والأجناس ، وقد حاقت بها الهزائم في القرن التاسع عشر على يد الحلف الإيطالي الفرنسي وعلى يد بروسيا سنة ١٨٦٦ ، فاضطرت إلى تعديل أوضاعها بما عرف بالمملكة الثنائية ، وكان نظام المملكة الثنائية يقوم على أساس أن لكل من النمسا والمجر حكما ذاتيا أو إدارة ذاتية ، كما أن لكل

منها دستوره ، وتتولى الادارة المركزية (الامبراطورية) شئون الدفاع وشئون السياسة الخارجية . وكانت هذه المملكة الثنائية تبسط سيطرتها على عديد من الأجناس والقوميات كالتشييك والبولنديين والسللاف والكروات والايطاليين - وهذا يفسر لنا لماذا لم يعتبر ردولف كل هؤلاء (فيما عدا الطليان) ضمن مفهوم الشرق الأدنى ، كما يفسر لنا لماذا أقدم أهل ساحل دالماشيا لاستقباله عندما قدم الى مصر .

(٦) امبراطورية النمسا والمجر في الفترة التي قام بها ردولف برجلته هو «ريسود جوريت الذي يقول عنه المورخ سسر : « ٠٠٠ حصل الحقب الطويله (١٨٤٨ - ١٩١٧) اننى اسوى فيها فرنسيس جوريت على عرشه بعينا ، ظل يكدح ويدأب فى منقبه ، ويوسع ويقرا ، من الصباح الباكر الى عتمة الليل : رجل مفجوع القلب مكلوم العواد - هذا اذا كان فى مقدوره أن يشعر بثقل الفجيعة . فقد اغتالت زوجته يد قاتل زعيم ، وازهى ابنه الوحيد روحه بيده ، وألحق ابن أخيه ووريث عرشه النكار بأسرته بقران لم يثقفه له الامبراطور ، وذلك بزواجه من سيدة كلف بها ، تدنو مرتبتها الاجتماعية من منزلة الامارة .

لكن سواء اكانت كل مقدرة لفرنسيس (فرانسوا) جوزيف على الشعور والاحساس قد نضبت معينها وجف ماؤها نفسه ام لشعور سسر فى دخيلته بعظمة منصبه الرفيع ، أم لمجرد أن طبيعته كانت باردة جوفاء ، فان هذا الرجل العجوز وأصل السير دون أن يهزه شيء - رجل متعبد زاهد الى ، كان يشاد بمدحه بوصفه الفارس الأول فى مملكته والسيد النبيل الأول فى أوربا . وقد منيت الامبراطورية النمساوية فى عهده بضربات ساحقة عديدة . »

فشر : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ، ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع . ط ٧ . دار المعارف ، ٧٦ . صص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

(٧) ليس هذا هو مصطلح العصر .

(٨) من الطبيعى أن يضع أهل شرق أوروبا من الأجناس التى توجد منها جاليات فى الأراضى التى تسيطر عليها مملكة النمسا والمجر تحت الحماية الامبراطورية كهذه الملكة ، ومن الطبيعى أيضا أن ترحب المملكة بذلك خاصة أنها كانت ذات أطماع توسعية .

(٩) نبات تنتهى أوراقه بحقائق صغير . (عن معجم المورد) .
(المترجم) .

(١٠) بعد خروج المسلمين من الأندلس بناء على أوامر كنسية أو حكومية ، وخروج اليهود أيضا بناء على رغبة شعبية عارمة ، لم يجد

اليهود من ملجأ لهم إلا الدولة العثمانية ومراكش ، وبدأ الأوربا أن المسلمين واليهود في حاله وفاق ونحالف ، وكان الأمر كذلك بالفعل أنعرضهم (المسلمين واليهود) لمشاكل مشتركة ، ولم تكن أوربا سعيدة بهذا التحالف حتى أنهم كانوا يشبهون المسلمين بـ «سبث Sabathero» ، وقد ظل هذا التحالف حوالى قرنين من الزمان وقصد حمى اليهود من الاياداة ، أما نتائجها بالنسبة للمسلمين أو الدولة العثمانية فلم تكن على ما يرام ، فقد عمل اليهود في البلاط العثمانى على منع أن تتقارب اسلامى مسيحي ، كما عملوا على ألا يتم صانع عثمانى اسباني ، وكانت بعض الجهود قد تم بذلها فعلا على هذا الصعيد ، وكنا نعلم أن مثل هذه الأفكار - ونعنى بها وجود تشابه خلقى (بكسر الخاء) وخلقى (بضم الخاء) بين المسلمين واليهود قد انتهت من العقل الأوربى بعد القرن الثامن عشر ، ولكننا نقرأها مرة أخرى في رحلة ردولف (القرن ١٩) خاصة وأنه قارن في موضع آخر بين (المكر والنفس) بين كل من المسلمين واليهود على سواء .

عما أوردناه في هذه الحاشية راجع :

- رحلة جوزيف بئس (الحاج يوسف بئس) الى مصر والحجاز ، ترجمه د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ (الهيئة الان الهيئه العامة للكتاب - سلسلة الالف كتاب الثانى) .
- العثمانيون في أوربا ، تأليف بول كزلز ، ترجمه د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ . الهيئة العامة للكتاب ، سلسلة الالف كتاب الثانى .
- رحلة قارتيما (الحاج يونس المصرى) ، الهيئة العامة للكتاب سلسلة الالف كتاب الثانى .
- دور المسلمين في انهك الاقتصاد الاسباني في القرن ١٦ وبداية ١٧ . تأليف د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ . مجلة جامعة الملك عبد العزيز - جدة . المجلد الأول ، ١٩٨٨ .

(١١) سكان مصر الأصليون عرب ، ويرى الرحالة العالم بيرتون أن قبط مصر عرب تصجروا أى انعزلوا لفترة بحكم احكام الصحران بالوادى والدلتا ، بل أن ردولف نفسه يذكر في موضع آخر من رحلته أن قبط مصر لا يختلفون شكلا (فيزيقيا) عن المسلمين .

راجع :

- رحلة بيرتون لمصر والحجاز ج ١ ، ٢ ، ٣ . (الترجمة الكاملة) سلسلة الالف كتاب الثانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- (١٢) ما بين القوسين توضيح من المترجم .
- (١٣) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

(١٤) راجع حاشية رقم ٤ .

(١٥) نوع من الأشغال الخشبية الدقيقة .

(١٦) رحلة ردولف - كما هو واضح - رحلة رسمية أو شبه رسمية فهو محاط من كل جانب بالمراقبين والمرافقين ولم يحاoul - ولا يستطيع - أن يتغلغل تغلغلا حقيقيا في صفوف الشعب ، ومن هنا القموه هذه الاجابة غير الحقيقية ، فهذه الظاهرة لا يخلو منها مجتمع على نحو أو آخر ، وهذه الطائفة من النساء قد تكون من النمسا أو غيرها .

(١٧) الامبراطور الرومانى ديوقلديانوس Diocletianus واسمه الاصلى ديوقليس ، تولى سنة ٢٨٦ م . تعرض المسيحيون فى عهده لاضطهاد شديد ، لدرجة أن الكنيسة المرقسية القبطية فى الاسكندرية قررت فيما بعد جعل تاريخ تولى ديوقلديانوس بداية التقويم القبطى .

سيد الناصرى : تاريخ الاميراطورية الرومانية ، ١٩٧٨ ، ص ٤٢٠ - (المترجم) .

(١٨) ليس من الضرورى أن يكون كل الندابين مستأجرون ، وقد ذكر الأمير نفسه فى الفصل الأول أنه شيع أحد اصدياقه الى مثواه الأخير وأنه حزن لذلك حزنا حقيقيا ، وكان ذلك فى فينا ، وفى بلاد الشرق هناك من يحزنون للموتى حزنا حقيقيا .

(١٩) قلت هذه السبخات بمرور الوقت الامتداد العمران ، واستصلاح الاراضى ، بالاضافة لدور طمى النيل الذى كان يعمل على ردم بعض هذه السبخات . والسبب الاصلى فى وجود هذه السبخات والمستطحات المائية المالحة - فيما يقول الجغرافيون - أن البحر كان يطلق على الدلتا ثم يعود فينحسر عن سواحلها .

(٢٠) راجع حواشى الفصل الأول - (المترجم) .

(٢١) الفجور فى مولد السيد البدوى ، وقيل ذلك على شرف الالهة بيساستيس .

(٢٢) يمكن تفسير العبارة المتعاطفة التى ذكرها الأمير ردولف عن عباس حلمى باشا (١٨٤٨ - ١٨٥٤) انه كان مناهضا للنفوذ الفرنسى فى مصر ، ورقضه مشروع قناة السويس الذى تم ، على أية حال - فى عهد سعيد باشا والخديو اسماعيل ، ويجمع المؤرخون أن عباس باشا حلمى لم يكن مرحبا بالنفوذ الاجنبى الأوروبى رغم استعانتة بالانجائز لإنشاء السكك الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة والسويس . أما فيما يتعلق بمقتله فمفضل هنا نقل الروايات المختلفة التى أعاد عرضها عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عصر اسماعيل ج ١ :

« ٠٠٠ اتفقت الروايات على أن عباس مات مقتولا في قصره بينها . وهذا أمر مقطوع بصحته ، ولكن الخلاف في روايه مقتله . ونيس عجيبا أن يختلف الرواة في ذلك ، فإن قتل عباس كان نتيجة مؤامرة من مؤامرات القصور ، وهذه المؤامرات لايسهل اكتساب حقيقتها ، أو الأساس على روايتها ، لما يكتنفها من الأسرار ، ولأنها تقع في بينج الظلام : بعيدة عن الأنظار ، فلا يعرف الناس عنها إلا ما تتناقله الأسننه بعد وفوسها : ومن هنا ينشأ الاختلاف في الرواية : ولدينا عن مقتل عباس روايتان ، أحدهما ذكرها اسماعيل باشا سرهنك في كتابه (حقائق الأخبار عى دول البشار ج ٢ ص ٢٦٥) والاخرى ذكرتها مدام أولب لشار كما « سمعتها بمصر في أوائل عهد اسماعيل ودونها في كتابها (كشف الستار عن أسرار مصر ص ١٤٣) »

ويؤخذ من رواية اسماعيل باشا سرهنك ، أن (عباس) كان له حاشية من المماليك يقرهم اليه ويصطفيهم ، ويتخذ منهم حراصين خدمه ، ولهم عنده من أنزله ما جعله يندق عليهم الرتب العسكرية المالية ، على غير كفاءة يستحقونها ، حتى حاز أكثرهم رتبة قائدعام وكان لهم كبير من خاصة غلمانه ، يسمى خليل درويش بك ، وعرف فيما بعد بحسين بك الصغير ؛ وقد أساء هذا الرئيس معاملة أولئك المماليك ، فاستنالموا عليه بالغمز واللمز ، وخاصة لأنه كان صغير السن ، فأتخذوا من حداثته مغمز الأقاويل . فسخط عليهم . وشكاهم الى مولاه ، فأمر بجلدهم . فجلدوا ؛ وجردهوا من ثيابهم العسكرية . واليسهم خشن اليااس وأرسلهم الى الاصطيلات لخدمة الخيل . فعز ذلك على « مصطفى باشا » أمين خزانه عباس ، لأنهم كانوا من أتباعه المقربين اليه . فسعى جهده لدى سيده ليعفو عنهم . فلم يزل يادئ الأمر بغيته . فلما ذهب عباس باشا الى قصره بينها يصحبه أحمد باشا يكن وإبراهيم باشا الألفى محافظ العاصمة ، رجاهما مصطفى باشا أن يطلبوا العفو عنهم ، فلما بذلك الى عباس . فأجاب ملتسهما . وأصدر أمرا بالعمو عنهم . وردهم الى مناصبهم . فجاءوا الى بينها ليرفعوا واجب الشكر للأمير . ولكنهم اضمروا الفتك به انتقاما لما اوقع بهم . فانتدروا به مع غلامين دن اسمه السراى . يدعى أحدهما عمر وصفي والآخر شاكر حسين . واتفق الجميع على قتله . وكان من عادة عباس عند نومه أن يقوم على حراسته غلامان من مماليكه . ففي ليلة ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يولية سنة ١٨٥٤ م) كان الغلامان المذكوران يتوايان حراسته ، فجاء المؤتمرون في غسق الليل على اتفاق معهما . وفتحا لهم الباب ، فدخلوا غرفة الأمير . وهو نائم ، ولما أرادوا الفتك به استيقظ وحاول النجاة ، فصدده عمر وصفي . وتكاثر عليه المؤتمرون ، وقتلوه ، ثم أوعزوا الى الغلامين بالهرب فهربا ، وكتم المتآمرون الخبر الى اليوم التالي ولما لم يستيقظ في موعده دخل عليه أحمد باشا يكن وإبراهيم باشا الألفى فوجداه مقتولا ، فدعروا لهذه الفاجعة ، واتفقا على أخفاء الخبر حتى نقل الأمير القتيل الى القاهرة في عربة ، ووصلا به قصره بالحلمية ، وهناك ذاع خبر قتله .

وأراد جماعة من أنصار عباس • وعلى رأسهم إبراهيم باشا الألفى أن يجعلوا الحكم من بعده لسجله إبراهيم الهامى باشا الذى كان وقتئذ باوروبا • فاتفقوا على استدعائه ليؤاوه الصكم ، ويمنعوا عنه عمه سعيد باشا أكبر أنجال محمد على وأحق الأمراء بالولاية طبقا للنظام القديم • وكان سعيد باشا وقتئذ بالاسكندرية ، فقيم بسراية بالقيسارى • فكتبوا سرا الى محافظ الاسكندرية اسماعيل سليم باشا • وأبلغوه بما اتفقوا عليه • وباللوا اليه القيام على النثر حتى يصضر الهامى باشا • فلما تلا الرسالة لم يشاءلرهم رأيهم • انلمه ان الحكم من حق سعيد باشا ، فقصد اليه من قوره • وأنهى اليه فصوص الرسالة • فشكره سعيد باشا على إخلاصه • وذهب حصيته الى سراى رأس القين • وأعلن اعتلاءه العرش • وأجريت حفلة الجلوس • وأطلقوا المدافع • ثم سافر سعيد باشا الى القاهرة بصحبة أمراء الأسرة الحاكمة الذين كانوا مبتعدين عن العاصمة لما بينهم وبين عباس من العداء والنفور ، فلما وصلوا الى القاهرة ذهب سعيد الى القلعة وتولى زمام الحكم •

تلك خلاصة رواية اسماعيل باشا سرمنك •

أما رواية مدام أولمب ادوار فخلاصتها ، أن الأميرة نازلى مانم عمه عباس هى التى انتعرت به وهى فى الاستانة ، وانذنت مملوكين من أتباعها لقتله ، واتفقت وإياهما ، على أن يعرضا أنفسهما فى سوق الرقيق بالقاهرة ، حتى يشتريهما عباس ويدخلهما فى خدمته • وكان المملوكان على جانب من الجمال • مما يرغب وكيل الأمير فى شرائهما ، فجاءا القاهرة فعلا ونزلا سوق الرقيق ، الى أن راها يوما وكيل الأمير ، فراقه جمالهما ، فاشتراهما وأدخلهما سراى مولاه ببها ، فأعجب بهما عباس ، وعهد اليهما بحراسته ليلا ، قالت مدام أولمب ادوار ، فلما كانت الليلة الأولى لم يجرؤ المملوكان على ارتكاب القتل ، لأنهما خشيا بأس عباس ، إذ كان قوى البنية ، شديد البطش ، وخافا أن يقاومهما وينجو من فتيكهما ، فينكل بهما شر تنكيل ، ويوردهما موارد الهلاك المحتوم ، فانقضت الليلة الأولى بسلام ، ومرت أيام عدة وهما يستجمعان قواتهما لانقاذ القتل عند ستوح الفرصة • حتى جاءتهما النوبة ثانية لحراسة مولاها ، فاعترضا أن يكونا أكثر شجاعة من قبل ، فلم يكذ يستغرق عباس فى النوم حتى انقضا عليه وقتلاه ، ولم يدعا له الوقت ليصيح أو يقاوم ، ولما ارتكبا الجريمة نزلا اسطبلات الخيل الملحقة بالسراى ، وطالبا الى السائس أن يجهز لهما فورا جوادين بحجة أن الباشا يطلب حاجة له من قصره بالعباسية ، فلم يشك الخاسم فى الأمر ، وجهز لهما الجوادين فسارا بهما عدوا الى القاهرة ، ومن هناك فرا الى الاستانة ، حيث نقدتهم الأميرة نازلى مكافأة سخية على انقاذ المؤامرة •

وتقول مدام أولمب ادوار أن الهامى باشا تعقب المملوكين القاتلين ليثار لأبيه ، فالتقى باحدهما فى الاستانة ، فقتله رميا برصاص مسدسه ،

ولم يستطيع اللحاق بالثانى ولم يعثر له على مكان ، وقيل انه اوى الى بلاد الأرناؤود فرارا من القتل .

فالروايتان ، مع اختلافهما فى بيان المحرضين على القتل وطريقة ارتكاب الجريمة متفقتان كما ترى فى أن عباس مات مقتولا اثر مؤامرة دبرت لقتله وأنفذت فى قصره بينها .

(٢٣) أجمع الرحالة الذين زاروا الشرق أن الخوف ، والخوف وحده ، هو الذى يجعل الشرقى يلزم حدوده ، ويتعبير غامض (يخاف ولا يخشى) ، وقد أفاد الرحالة بيرتون فى وصف هذه العلة خصوصا بالنسبة للموظف الشرقى ، ورفاق السفر ، كما أشار بعض هؤلاء الرحالة من خوف المصريين من ذوى المناصب الرسمية ، بل من مجرد زيهم الرسمى ، وقد يكون فى هذا بعض المبالغة ، والذى لا شك فيه أن دراسات جادة ومحايدة لم تتم ، حتى الآن لتفسير ذلك من منظور تاريخى ونفسى واثروبولوجى .

(٢٤) يقصد ما يعرف بحى مصر القديمة .

(٢٥) أكد الرحالة بيرتون هذا القول فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

راجع رحلة بيرتون الى مصر والحجاز ج ١ ، ٢ ، ٣ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب - سلسلة الألف كتاب الثانى .

(٢٦) مكان وقوف الشماسية أمام حامل الأيقونات . انظر : ملحق المترجم (ابراهيم سلامة) لكتاب بتلر : الكناس القبطية فى مصر ، ج ٢ .

(٢٧) المقصود مسجد الحسين كما سيتضح من السياق .

(٢٨) مشربيات قوسية - اجتهد من المترجم .

(٢٩) النص Scroll ، وفى معجم مصطلحات الفنون (نشر مجمع اللغة العربية بدمشق) تعنى « لفيفة مصورة » وأثرنا ما أوردها من المتن لوضوحه .

(٣٠) النص : السنة المحمدية .

(٣١) ما بين القسوسين توضيح من المترجم .

(٣٢) ثمة خلاف فى أصل كلمة فسطاط ، ومن ذلك أنها معربة عن الكلمة الاغريقية Fossatum وتعنى المدينة الحصينة وقد نقلها العرب عن البيزنطيين عند اتصالهم بهم فى حروب الشام أثناء الفتح الاسلامى . لكن الكلمة وردت فى المعاجم العربية بمعنى الخيمة ، وفى المعجم الوجيز - على سبيل المثال - أن الفسطاط بيت يتخذ من الشعر ، وأنها مدينة مصر العتيقة التى بناها عمرو بن العاص موضع فسطاطه .

انظر : المعجم الوجيز مادة فسطاط .

أيضا : أحمد مختار العبادي : أحداث مصر الإسلامية والمغرب والأندلس (ملحق بكتاب أزمنة التاريخ الإسلامي ج ١ : الكويت ، المجلس الوطني للثقافة ؛ ١٩٨٢ . ص ٤٦٠) .

(٣٣) أحمد بن طولون .

(٣٤) جامع السلطان حسن ، هل حسن هذا سلطان !؟

(٣٥) لا نعرف لهذا أصلا .

(٣٦) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

(٣٧) Arecu - ترجمها معجم الشهابي كوثل (بفتح الكاف والثاء وتسكين الواو) أو كنتيه (بفتح الكاف وتسكين النون) وذكر أنه جنس نبات للزينة من النخاميات ، وذكر منه أنواعا - (المترجم) .

(٣٨) طيور من فصيلة دجاجات الأرض فيما يقول صاحب معجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية ، ويسميه الشوام شكب (بضم الشين والكاف) وهو على أنواع - (المترجم) .

تعليقات المترجم

عن الفصل الثالث

- (١) ما بين القوسين توضيح من المترجم .
(٢) عن معجم المصطلحات الزراعية للشهابي .

(٣) الهجرة النبريرية الى مصر ، هجرة واسعة لم تحظ بالدراسة الكافية ، فقد اهتم الباحثون بهجرة القبائل العربية من شبه الجزيرة العربية الى مصر ، وكذلك هجرة بعض الشعوب ، كما اشارت المراجع لاستيطان الأتراك وأهل الروميلي (شرق أوروبا من المسلمين خاصة) ، أما هجرة المغاربة الى مصر واستيطانهم بها فهي لم تحظ بدراسة كافية ومن خلال هذه الرحلة يتضح أن عددا كبيرا منهم قد راحوا يجولون في صحراء مصر الغربية ، واستقروا في مصر والفيوم والصعيد ، مما يؤكد عمق الروابط المصرية بالمغرب العربي ، عمقا لا يقل عن ارتباطها بالشرق العربي - (المترجم) .

(٤) وصف ريدولف منخفض الفيوم أكثر من مرة في رحلته هذه بأنه واحة ، ويمكن التماس العذر له في ذلك الوقت لأنه وجد الصحارى تحيط بالمنخفض من كل الجهات ، لكن الحقيقة أنه امتداد طبيعي لوادى النيل رغم أنه لا يختلف من حيث التكوين والشكل عن بقية المنخفضات الأخرى بالصحراء الغربية من حيث انخفاض القاع وانحدار أراضيها واحاطته بهضاب مرتفعة ، ومنخفض الفيوم متصل بوادى النيل عن طريق بحر يوسف وهو فرع قديم للنيل ، ويغلى طمى النيل وكان بحر يوسف يخرج من النيل مباشرة قرب ديروط ، ولكنه يستمد مياهه حاليا من ترعة الابراهيمية التي تم حفرها سنة ١٨٧٣ في عهد الخديو اسماعيل وتخرج من عند أسيوط ، ومن هنا فوصف ريدولف منخفض الفيوم بأنه واحة Oasis خطأ واضح - (المترجم) .

عن جغرافية الفيوم انظر على سبيل المثال :

- محمد السيد غلاب وآخرون : جغرافية مصر وحوض النيل .
القاهرة ، وزارة التربية ، ١٩٩٥ ، ص ٣٢ .

(٥) اتفق كل الرحالة على هذه النقطة (لا شيء يسير في الشرق ببساطة وهدوء ، وإنما لابد من تعقيدات نتيجة البلادة في العمل ، أو نتيجة عدم الانضباط ، أو نتيجة طبيعة الموظف الشرقي الذي لا ينجز عملا إلا إذا تعرض لضغط أو خوف ، أو أشبع غروره بتسائل الآخرين له

أو تقاضى رشوة ٠٠٠) يشير لذلك بوضوح وتفصيل ، وها هو الأمير ردولف يشير لذلك من منظور آخر فى اواخر عهد الخديو اسماعيل وأشار قبلهما الرحالة فارتيماء لمشيء كهذا - (المترجم) .

(٦) تأكيد آخر على عمق التأثيرات المغربية فى سكان مصر ، بحيث يمكن القول انه لا يقل كثيرا عن اثر القبائل العربية النازحة من شبه الجزيرة العربية .

(٧) ويسمى أيضا خضار (بضم الخاء وتشديد الضاد) ، وكلمة الرروار شائعة فى الشام ولكنها لم ترد فى كتب التراث العربية وهو من رتبة ملتصقات الأصابع . عن معجم الشهابى - (المترجم) .

(٨) طيط أو أبو طيط أو الزقزاق الشامى وهو طائر طويل الساق يعيش حول الأنهار والمستنقعات ويسمى بالانجليزية أيضا Lapwing عن الشهابى - (المترجم) .

(٩) اسمه العلمى Charadius ويسمى بالعامية أحيانا (أبو الروس) وأحيانا دمشق (بفتح الدال وتسكين الميم) طويل الساق . وهو على أنواع : زقزاق ذهبى ، وزقزاق شامى ، وما ذكرناه فى حاشية سابقة .

(١٠) يلاحظ قارئ الرحلة إشارة ردولف كثيرا لمزارع قصب السكر ، والحقيقة ان الخديو اسماعيل توسع كثيرا فى زراعته لارتفاع أسعار السكر اثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، وزادت العناية بزراعة القصب بعد تراجع أسعار القطن عقب انتهاء الحرب الأمريكية ، واستحدث اسماعيل صناعة السكر وأكثر من مصانعه حتى لا تعتمد البلاد على القطن وحده كمصدر للدخل . الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ٢ ، ص ١٦ .

(١١) حجل ويسمى أيضا قبيج (بفتح القاف والباء) ، والمفرد حجلة ، وهو على أنواع : دراج (بضم أوله وتشديد الراء وفتحها) وحجل رومى وحجل أشهب ٠٠٠ الخ .

عن معجم الشهابى - مادة Partridge (podix) - (المترجم) .

(١٢) ويسمى أيضا سقاوة (بفتح السين والقاف) وهو من رتبة الجوارح - عن معجم الشهابى - (المترجم) .

(١٣) أغان حزينة ، وهى أغانى أصحاب القوارب والعاملين عليها غالبا .

(١٤) من أسمائه المعجمية أيضا حوصل (بتسكين الواو وفتح الحاء والصاد) وذلك لأن له حوصلة كبيرة - (المترجم) .

(١٥) حاشية سابقة - (المترجم) .

(١٦) حاشية سابقة - (المترجم) *

(١٧) رغم تحذير صاحب المعجم الزراعى من ان الناس يترجمون Eagle على انها نسر وهو خطأ ، فقد أوردنا فى المتن ما اعتسده عليه الناس ونورد هنا التصحيح الذى ينبهنا له معجم الشهاىى اصطلاحات العلوم الزراعية :

Eagle تعنى العقاب (بضم العين) ، ولا يصح ترجمتها نسرا لأن النسر هو Vulture ، والعقاب كلمة مؤنثة تطلق على الذكر والأنثى .
وهى من رتبة الكواسر وفصيلة الصقريات ، وهى على أنواع :

- عقاب رخماء بيضاء الرأس *

- عقاب ذهبية *

- عقاب البحر *

- صرارة (يفتح الصاد وتشديد الراء وفتحها) *

راجع المادة بالتفصيل - (المترجم) *

(١٨) من الفصيلة السنورية ورتبة اللواحم ، وهو حيوان مفترس ..
عن الشهاىى - (المترجم) *

(١٩) وهى على أنواع : انجليزية ، أفريقية ، لا ورقية تنه وهى الصحارى وعلى السواحل ، وطرفاء عقداً أو مفصلية وهى الأثل وذكور صاحب معجم المصطلحات الزراعية أنواعاً كثيرة ، والمقصود غالباً هو ما يعرف فى مصر بأشجار السنط - (المترجم) *

(٢٠) الغره ساقها طويلة وتعيش فى مياه المستنقعات * راجع مادة Fulica فى معجم المصطلحات الزراعية - (المترجم) *

(٢١) Peat والخث بضم الخاء هو الطحالب اذا يبس وقدم عهده ، والكلمة أيضاً تعنى التراب العضوى الناتج من تحلل بعض النباتات المائية كالطحالب ويسمى فى مصر (الأشنة) بفتح الألف والشين وهو الحزاق (بفتح الحاء وما بعدها) كما يسمى فى مصر أيضاً - (المترجم) *

(٢٢) طائر يصاد ، طويل الساق ، غير الدجاج الداجن - (المترجم) *

اقرأ فى هذه السلسلة

| | |
|-----------------------|------------------------------------|
| برتراند رسل | ؟علام الاعلام وقصص اخرى |
| ى . رادونسكايا | الالكترونيات والحياة الحديثة |
| الدس مكسلى | تقنية مقابل نقطة |
| ت . ر . فريمان | الجنرالنيا فى مائة عام |
| رايموند وليامز | الثقافة والمجتمع |
| ر . ج . فوريس | تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج) |
| ليسترديل راي | الأرض الغامضة |
| والتر ألين | الرواية الانجليزية |
| لويس فارچاس | الوشد الى فن المسرح |
| فرانسوا دوماس | اللهة مصر |
| د . قدرى حفى وأخرون | الانسان المصرى على الشاشة |
| اولج فولكف | القاهرة مدينة الف ليلة وليلة |
| هاشم النحاس | الثقافة القومية فى اسبينا العربية |
| ديفيد وايام ماكديال | مجموعات النقود |
| عزيز الشوان | الموسيقى - تعبير نفسى - ومنطق |
| د . محسن جاسم الموسوى | مصر الرواية - مقال فى النوع الادبى |
| اشراف س . بى . كوكس | ديالون توماس |
| جون لويس | الانسان ذلك الكائن الغريب |
| جول ويست | الرواية الحديثة |
| د . عبد المظى شعراوى | المسرح المصرى المعاصر |
| أنور المعداوى | على محمود طه |
| بيل شول وأندريت | التوبة النفسية للآهرام |
| د . صفاء خلوصى | فن الترجمة |
| الف ئى ماتسار | قلمى |
| فيكتور برومبير | مسئدال |

| | |
|---------------------------------------|--------------------------|
| رسائل واحاديث من المفقى | فيكتور هوجو |
| الجزء والكل (محاورات في مضمار | فيرنر هيزبرج |
| الفيزياء الذرية) | |
| التراث الشامخ ماركس والماركسيون | سدنى هوك |
| فن الأدب الروائى عند تولستوى | ف . ع . أدنيكوف |
| أدب الأطفال | هادى نعمان الهينى |
| أحمد حسن الزيات | د . نعمة رحيم العزوى |
| اعلام العرب فى الكيمياء | د . فاضل أحمد الحداش |
| فكرة المسرح | جلال الشحرى |
| الجحيم | هنرى باربوس |
| صنع القرار السياسى | السيد عليوة |
| التطور الحضارى للانسان | جاكوب برونوفسكى |
| هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال ؟ | د . روجر ستروجران |
| تربية الدواجن | كاتى ثير |
| الموتى وعالمهم فى مصر القديمة | ا . سبنسر |
| النصل والطب | د . ناعوم باتروقيتش |
| سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى | حوزيف داهموس |
| سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازا | |
| مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤ | د . لينوار شاسرن رابت |
| كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة | د . جون شيندلر |
| الصنمخافة | بييسر البيرر |
| اثر الكوميديا الالهية لداقنى فى الفن | الدكتور غبريال وهبه |
| التشكيلى | |
| الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية | |
| وبعدما | د . رحسيس عوض |
| حركة عدم الانحياز فى عالم متغير | د . محمد نعمان جلال |
| الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج) | فرانكلين ل . باومر |
| الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى | |
| ١٨٨٥ - ١٩٨٥ | شوكت الربيعى |
| الفتنة الأسرية والأبناء الصغار | د . محبى الدين أحمد حسين |

| | |
|-----------------------------|---------------------------------------|
| تأليف : ج . دادلى اندرو | تظريات الفيلم الكيرى |
| جوزيف كونراد | مختارات من الادب القصصى |
| د . جوهان دروشتر | الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟ |
| طائفة من العلماء الأمريكىين | حرب الفضاء |
| د . السيد عليزة | ادارة الصراعات الدولية |
| د . مصطفى منسانى | الميكروكمبيوتر |
| صبرى الفضل | مختارات من الادب اليابانى |
| فرانكلين ل . باومر | الفكر الأوربى الحديث ٢ ج |
| جابريل باير | تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة |
| انطونى دى كرسبى | اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة |
| دوايت سوين | كتابة السيناريو للسينما |
| زافيلسكى ف . س | الزمن وقياسه |
| ابراهيم القرضاوى | أجهزة تكييف الهواء |
| بيتر رداى | الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى |
| جوزيف داموس | سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى |
| س . م يورا | التجسرية اليسوفناتية |
| د . عاصم محمد رزق | مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية |
| رونالد د . سمبسون | العلم والطلاب والمدارس |
| ونورمان د . اندرسون | |
| د . انور عبد الملك | الشارع المصرى والفكر |
| ولت وتيمان روستو | حوار حول التنمية الاقتصادية |
| فريد . س . هيس | تبسيط الكيمياء |
| جون يوركهارت | العادات والتقاليد المصرية |
| الان كاسبيار | التذوق السينمائى |
| سامى عبد المعطى | التخطيط السياحى |
| فريد مويل | البذور الكويتية |
| شاندرى يكراماسينج | |
| حسين حلمى المهندس | دراما الشاشة (٢ ج) |
| روى روبرتسون | الهيرويين والايدز |
| دوركاس ماكلينتوك | مسور الفريقية |
| مشمم النحاس | نجيب محفوظ على الشاشة |

الكمبيوتر في مجالات الحياة
المشدرات حقائق اجتماعية ونفسية
وفئات الأعضاء من آلاف الى
الهندسة الوراثية
تربية اسماك الزينة
كتف : تحيرت الفكر الانساني (٣ ج)
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)

الفكر التاريخي عند الاغريق
قضايا وملاحق في الفن التشكيلي المعاصر
الانثنية في البلدان النامية
بداية بلا نهاية
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية
حوار حول النظامين الرئيسيين
للكون
الارهاب

اثناتون
التيبة الثالثة عشرة
الفلسفة وقضايا العصر (ج)
الاساطير الاغريقية والرومانية
تاريخ العلم والتكنولوجيا
التوافق النفسي
الدليل البيولوجي
لغة الصورة

الثورة الاصلاحية في اليابان
الحسام الثالث عشر
الانقراض الكبير
تاريخ النقود
التحليل والتوزيع الاوركسترا
الشاهنامه (٢ ج)
الحياة الكريمة (٢ ج)
قيام الدولة العثمانية

د * محمود سري طه
بيتر لوني
بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
ويليام بينز
ديفيد الدرتون
احمد محمد الشنواني
جميعها : جون ر * بور
والتون جوايديجر
ارنولد توينبي
د * حسام رضا
م * ه * كنج وآخرون
جورج جاموف
د * السيد طه ابو سديرة
جاليليو جاليليه
اريك موريس وآلان هو
سيريل الدريد
آرثر كيبستلر
جون بور
ب * كومان
ر * ج * فوريس
توماس ا * هاريس
مجموعة من الباحثين
روي أرمنز
ناجاي متشيرو
بول هاريسون
ميخائيل البى ، جيمس لفوك
فيكتور مورجان
اعداد محمد كمال اسماعيل
ابو الفاسم الغردوسي
بيرتون بورتر
محمد آزاد * كوبريلي

| | |
|--|--------------------------|
| عن النقد السينمائي الأمريكي | ادوارد ميرى |
| ترانيم زرادشت | اختيار / د. فيليب عطية |
| السينما العربية | اعداد / موني براح وآخرون |
| دليل تنظيم المتاحف | آدامز فيليب |
| عقود المطر وقصص اخرى | نادين جورديمر وآخرون |
| جماليات فن الاخراج | زيجمونت هبز |
| التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج) | ستيغن اولمونت |
| الحملة الصليبية الاولى | جوناثان ريل سميت |
| التمثيل للسينما والتليفزيون | توني بار |
| العثمانيون في اوريا | بول كولز |
| صناع الخلود | موريس بير براير |
| الكنائس القبطية القديمة في مصر (٣ ج) | الفريد ج. تيلر |
| رحلات دارتينا | رودريجو فارتينا |
| انهم يصنعون الميشر (٢ ج) | فانس بكارد |
| في النقد السينمائي الفرنسي | اختيار / د. رفيق الصبان |
| السينما الخيالية | بيتر نيكولز |
| السلطة والفرد | برتراند راصل |
| الأزهر في الف عام | بيارد دودج |
| رواد الفلسفة الحديثة | ريتشارد شاختر |
| سفر نامه | ناصر خسرو علوى |
| مصر الرومانية | نفتالي لويس |
| كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر | جاك كرايس جونيور |
| الاتصال والهيمنة الثقافية | هربرت شيلر |
| مختارات من الاداب الآسيوية | اختيار / صبرى الفضل |
| كتب غيرت الفكر الانساني (٣ ج) | احمد محمد الشنوائى |
| الشموس المتفجرة | اسحق عظيموف |
| مدخل الى علم اللغة | لوريتو تود |
| حديث التهر | اعداد / سورياى عبد الملك |
| من هم القطار | د. ابرار كريم الله |

اعداد / جابر محمد الجزار

هـ ج ٠ ولز

جوستاف جرونبيوم

ستيفن رانسيما

ارنولد جزل

بادى اونيمود

برنسلو مالمينوفسكى

جلال عبد الفتاح

محمد زينهم

مارتن فان كريفلد

سوندارى

فرانسيس ج ٠ برجن

جى كارفيل

الفين توفلر

توماس ليههارت

اعداد كريستيان سالين

بول وارن

الحاج يوسف

اعداد محمود سامى عطا الله

جورج ستانير

كريستيان دى روشى

ماسفريخت

معالم تاريخ الانسانية ٤ ج

حضارة الاسلام

الحمالات الصليبية

الطفل ٢ ج

افريقيا الطريق الآخر

السحر والعلم والدين

الكون ٠ ذلك المجهول

تكنولوجيا فن الزجاج

حرب المستقبل

الفلسفة الجوهرية

الاعلام التطبيقي

تبسيط المفاهيم الهندسية

تحول السلطة

فن المايه والبانثوميم

السيناريو فى السينما الفرنسية

خفايا نظام النجم الأمريكى

رحلة جوزيف تبسى

الفيلم التسجيلى

بين تولستوى ودووستويفسكى

المرأة الفرعونية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٥٤٠ / ١٩٩٥

ISBN — 977 — 01 — 4613 — 7

قام الأمير النمساوي ريتشارد برجلته لمصر والقدس في أواخر عهد
الخدّيو إسمايل وقد مسح مصر من شمالها إلى جنوبها ووصف
معظم المدوّ المصرية وأشار إشارات مفيدة للآثار ونشر ترجمات
رائعة لبعض الكتابات الهيروغليفية وبعض مفاخرته مصر توجه إلى
حيث زار القدس الشريف وغيرها من المزارات المقدسة ووصف
الحياة البدوية حول نهر الأردن وأبدع إعجاباً بروح التسامح في
القدس وتعرض للمذاهب المسيحية والممارسات الطقسية المختلفة
كما أورد بعض القصص اليهودية وأبدع رأيه فيها

To: www.al-mostafa.com